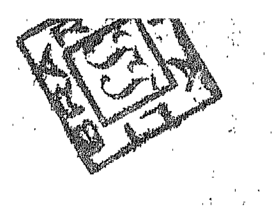


كتاب

الجام العوام عن علم الكلام

تأليف

العلامة الامام حجة الاسلام

أبى حامد محمد بن محمد الغزالى

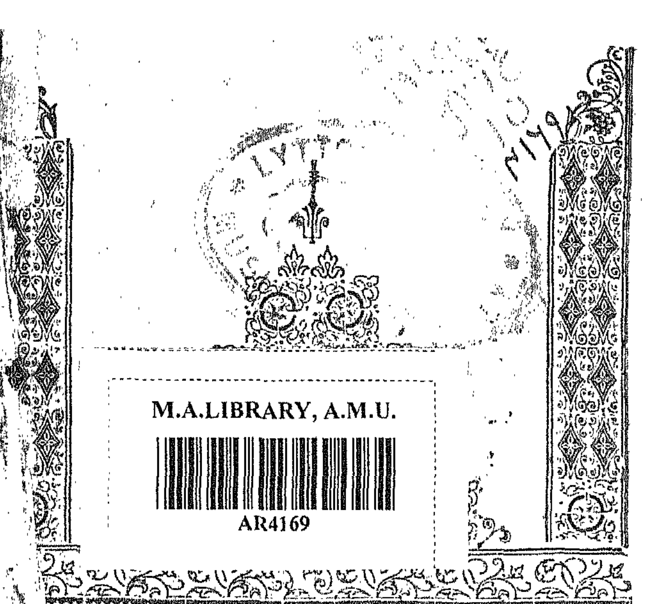
قدس الله سره وجعل الفردوس

مقره

طبع فى المطبعة الاعلامية

بمصر القاهرة

سنة ١٣٠٣



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي تجلى لكافة عباده بصفاته واسمائه وتاه الطالبين في بيداء كبريائه وقص اجنحة الافكار دون وتعالى بجلاله عن ان تدرك الاوهام كنه حقيقته واستو أوليائه وخاصته واستغرق ارواحهم حتى احترقوا بنا وبهتوا في اشراق انوار عظمته وخرست السنتهم عن الثنا جلال حضرته الا بما سمعهم من اسمائه وصفاته وأ لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم خير خليقته وت وعترته ﴿ أما بعد ﴾ فقد سألتني ارشدك الله عن الاخبار ا

الثقا

فهرست الجام العوام عن علم الكلام للامام العالم العامل والهمام الفاضل الكامل حجة الاسلام محمد بن محمد الغزالى قدس الله سره العالى ونفعنا بعلمه السامى

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت فهرست الجام العوام والحمد لله الملك العلام ﴾

صحيفة

﴿ تمت فهرست المنقذ من الضلال والحمد لله على كل حال ﴾

﴿ فهرست المنقذ من الضلال للإمام الكامل الفاضل حجة الإسلام ﴾
﴿ أبي حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ﴾

صحيفة

لاتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا
في الله وصفاته ما تعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم
والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجري مجراه
مما أخذوه من ظواهر الاخبار وصورها وانهم زعموا ان معتقدهم فيه
معتقد السلف واردت ان اشرح لك اعتقاد السلف وان ابين ما يجب
على عموم الخلق ان يعتقدوه في هذه الاخبار واكشف فيه الغطاء عن
الحق وامير ما يجب البحث عنه عما يجب الامساك والكف عن الخوض
فيه فاجبتك الى ملتمسك متقربا الى الله سبحانه في اظهار الحق
الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب
ذي مذهب فالحق اولى بالمراقبة والصدق والانصاف اولى بالمحافظة
عليه واسأل الله التسديد والتوفيق وهو باجابة داعيه حقيق وها انا
ارتب الكتاب على ثلاثة ابواب (باب) في بيان حقيقة مذهب
السلف في هذه الاخبار (وباب) في البرهان على ان الحق فيه
مذهب السلف وان من خالفهم فهو مبتدع (وباب) في فصول
متفرقة نافعة في هذا الفن (الباب الاول) في شرح اعتقاد السلف
في هذه الاخبار (اعلم) ان الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند
أهل البصائر هو مذهب السلف اعني مذهب الصحابة والتابعين
وها انا اورد بيانه وبيان برهانه (فأقول) حقيقة مذهب السلف
وهو الحق عندنا ان كل من بلغه حديث من هذه الاحاديث من عوام
الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور * التقديس * ثم التصديق *
ثم الاعتراف بالعجز * ثم السكوت * ثم الامساك * ثم الكف *

ثم التسليم لاهل المعرفة (أما التقديس) فأعني به تنزيه الرب تعالى
عن الجسمية وتوابعها (وأما التصديق) فهو الايمان بما قاله
صلى الله عليه وسلم وان ماذكره حق وهو فيما قاله صادق وانه حق
على الوجه الذي قاله واراده (وأما الاعتراف بالعجز) فهو ان يقر بان
معرفة مراده ليست على قدر طاقته وان ذلك ليس من شأنه وحرفته
(وأما السكوت) فان لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه و يعلم ان
سؤاله عنه بدعة وانه في خوضه فيه مخاطر بدينه وانه يوشك ان
يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر (وأما الامساك) فان
لا يتصرف في تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى
والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك
اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة
(وأما الكف) فان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه
(وأما التسليم لاهله) فان لا يعتقد ان ذلك ان خفي عليه لعجزه فقد
خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على الانبياء أو على
الصديقين والاولياء فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها
على كل العوام لا ينبغي ان يظن بالسلف الخلاف في شيء منها
فلنشرحها وظيفة وظيفة ان شاء الله تعالى (الوظيفة الاولى)
التقديس ومعناه انه اذا سمع اليد والاصبع وقوله صلى الله عليه وسلم
ان الله خمر طينة آدم بيده * وان قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع
الرحمن * فينبغي ان يعلم ان اليد تطلق لمعنيين احدهما هو
الوضع الاصلي وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب واللحم

والعظم

والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة اعنى بالجسم
عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من ان يوجد بحيث
هو الا بان يتنحى عن ذلك المكان (وقد يستعار هذا اللفظ) اعنى
اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم اصلا كما يقال البلدة فى يد الامير
فان ذلك مفهوم وان كان الامير مقطوع اليد مثلا فعلى العامى وغير
العامى ان يتحقق قطعا ويقينا ان الرسول عليه السلام لم يرد بذلك
جسما هو عضو مركب من لحم ودم وعظم وان ذلك فى حق الله تعالى
محال وهو عنه مقدس فان خطر بباله ان الله جسم مركب من اعضاه
فهو عابد صنم فان كل جسم فهو مخلوق وعبادة المخلوق كفر وعبادة
الصنم كان كفرا لانه مخلوق وكان مخلوقا لانه جسم فمن عبد جسما فهو
كافر باجماع الائمة السلف منهم والخلف سواء كان ذلك الجسم كثيفا
كالجبال الصم الصلاب او لطيفا كالهواء والماء وسواء كان مظلما
كالارض او مشرقا كالشمس والقمر والكواكب او مشفا لا لون له
كالهواء او عظيما كالعرش والكرسى والسماء او صغيرا كالذرة والهباء
او جمادا كالحجارة او حيوانا كالانسان فالجسم صنم فبان يقدر
حسنه وجماله او عظمه او صغره او صلابته وبقاؤه لا يخرج عن كونه
صنما ومن نفى الجسمية عنه وعن يده واصبعه فقد نفى العضوية
واللحم والعصب وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث ليعتقد
بعده انه عبارة عن معنى من المعانى ليس بجسم ولا عرض فى جسم
يليق ذلك المعنى بالله تعالى فان كان لا يدرى ذلك المعنى ولا يفهم كنه
حقيقته فليس عليه فى ذلك تكليف اصلا فمعرفة تأويله ومعناه

ليس بواجب عليه بل واجب عليه ان لا يخوض فيه كما سيأتي مثال آخر
اذا سمع الصورة في قوله عليه السلام (ان الله خلق آدم على صورته)
(واني رأيت ربي في أحسن صورة) فينبغي ان يعلم ان الصورة اسم
مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة في أجسام مؤلفة مولدة
مرتبة ترتيبا مخصوصا مثل الانف والعين والفم والخد التي هي اجسام
وهي لحوم وعظام وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة في جسم
ولا هو ترتيب في اجسام كقولك عرف صورته وما يجري مجراه فليتحقق
كل مؤمن ان الصورة في حق الله لم تطلق لارادة المعنى الاول الذي
هو جسم لحمي وعظمي مركب من أنف وفم وخد فان جميع ذلك
اجسام وهيئات في اجسام وخالق الاجسام والهيئات كلها منزه عن
مشابهتها وصفاتها واذا علم هذا يقينا فهو مؤمن فان خطر له انه ان
لم يرد هذا المعنى الذي اراده فينبغي ان يعلم ان ذلك لم يؤمر به بل أمر
بان لا يخوض فيه فانه ليس على قدر طاقته لكن ينبغي ان يعتقد
انه اريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم ولا عرض
في جسم مثال آخر اذا قرع سمعه النزول في قوله صلى الله عليه وسلم
(ينزل الله تعالى في كل ليلة الى السماء الدنيا) فالواجب عليه ان
يعلم ان النزول اسم مشترك قد يطلق اطلاقا يفتقر فيه الى ثلاثة أجسام
جسم عال هو مكان لساكنه وجسم سافل كذلك وجسم منتقل من
السافل الى العالي ومن العالي الى السافل فان كان من اسفل
الى علو سمي صعودا وعروجا ورقيا وان كان من علو الى اسفل سمي نزولا
وهبوطا وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه الى تقدير انتقال وحركة

في

في جسم كما قال الله تعالى (وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج)
وما رئي البعير والبقر نازلا من السماء بالانتقال بل هي مخلوقة في
الارحام ولانزالها معنى لا محالة كما قال الشافعي رضي الله عنه دخلت
مصر فلم يفهموا كلامي فنزلت ثم نزلت ثم نزلت فلم يرد به الانتقال
بجسده الى اسفل فتحقق المؤمن قطعا ان النزول في حق الله تعالى ليس
بالمعنى الاول وهو انتقال شخص وجسد من علو الى اسفل فان الشخص
والجسد اجسام والرب جل جلاله ليس بجسم فان خطر له انه ان لم
يرد هذا فما الذي اراد فيقال له انت اذا عجزت عن فهم نزول البعير
من السماء فانت عن فهم نزول الله تعالى اعجز فليس هذا بعشك
فادرجي واشتغل بعبادتك او حرفتك واسكت واعلم انه اريد به معنى
من المعاني التي يجوز ان يراد بالنزول في لغة العرب ويليق ذلك المعنى
بجلال الله تعالى وعظمته وان كنت لا تعلم حقيقته وكيفيته مثال آخر
اذا سمع لفظ الفوق في قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) وفي
قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) فليعلم ان الفوق اسم مشترك
يطلق لمعنيين احدهما نسبة جسم الى جسم بان يكون احدهما اعلى
والآخر اسفل يعني ان الاعلى من جانب رأس الاسفل وقد يطلق
لفوقية الرتبة وبهذا المعنى يقال الخليفة فوق السلطان والسلطان
فوق الوزير وكما يقال العلم فوق العمل والاول يستدعي جسما ينسب
الى جسم (والثاني) لا يستدعيه فليعتقد المؤمن قطعا ان الاول غير
مراد وانه على الله تعالى محال فانه من لوازم الاجسام او لوازم اعراض
الاجسام واذا عرف نفي هذا المحال فلا عليه ان لم يعرف انه لماذا

أطلق وماذا أريد فقس على ما ذكرناه ما لم نذكره (الوظيفة الثانية الإيمان والتصديق) وهو أنه يعلم قطعا أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق في وصف الله تعالى به فليؤمن بذلك وليوقن بأن ما قاله صدق وما أخبر عنه حق لا ريب فيه وليقل آمنا وصدقنا وأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه وحق بالمعنى الذي أراده وعلى الوجه الذي قاله وإن كنت لا تقف على حقيقته فإن قلت التصديق إنما يكون بعد التصور والإيمان إنما يكون بعد التفهم فهذه الألفاظ إذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد صدق قائلها فيها فجوابك أن التصديق بالأمور الجملية ليس بمحال وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الألفاظ معان وأن كل اسم فله مسمى إذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى فيمكنه أن يعتقد كونه صادقا مخبرا عنه على ما هو عليه فهذا معقول على سبيل الإجمال بل يمكن أن يفهم من هذه الألفاظ أمور جملية غير مفصلة ويمكن التصديق كما إذا قال في البيت حيوان أمكن أن يصدق دون أن يعرف أنه إنسان أو فرس أو غيره بل لو قال فيه شيء أمكن تصديقه وإن لم يعرف ما ذلك الشيء فكذلك من سمع الاستواء على العرش فهم على الجملة أنه أريد بذلك نسبة خاصة إلى العرش فيمكنه التصديق قبل أن يعرف أن تلك النسبة هي نسبة الاستقرار عليه أو الإقبال على خلقه أو الاستيلاء عليه بالقهر أو معنى آخر من معاني النسبة فأمكن التصديق به وإن قلت فأي فائدة في مخاطبة الخلق بما لا يفهمون فجوابك أنه قصد

بهذا الخطاب تفهيم من هو اهله وهم الاولياء والراسخون فى العلم وقد
فهموا وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام ان يخاطبهم بما
يفهم الصبيان والعوام بالاضافة الى العارفين كالصبيان بالاضافة
الى البالغين ولكن على الصبيان ان يسألوا البالغين عما يفهمونه
وعلى البالغين ان يجيبوا الصبيان بان هذا ليس من شأنكم ولستم من
اهله فخوضوا فى حديث غيره فقد قيل للناس فاسألوا اهل الذكر فان
كانوا لا يطيقون فهمه فهموهم والقوا اليهم وما اوتيتم من العلم الا قليلا
ولا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم مالكم ولهذا السؤال هذه
معان الايمان بها واجب والكيفية مجهولة أى مجهولة لكم
والسؤال عنه بدعة كما قال مالك الاستواء معلوم والكيفية مجهولة
والايمان به واجب فاذن الايمان بالجمليات التى ليست مفصلة فى
الذهن ممكن ولكن تقديسه الذى هو نفى المحال عنه ينبغى ان يكون
مفصلا فان المنفى هى الجسمية ولوازمها ونعنى بالجسم ههنا الشخص
المقدر الطويل العريض العميق الذى يمنع غيره من ان يوجد بحيث
هو والذى يدفع ما يطلب مكانه ان كان قويا ويندفع ويتنحى عن مكانه
بقوة دافعه ان كان ضعيفا وانما شرحنا هذا اللفظ مع ظهوره لان
العامى ربما لا يفهم المراد به (الوظيفة الثالثة) الاعتراف بالعجز
ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعانى وحقيقتها ولم
يعرف تأويلها والمعنى المراد به ان يقر بالعجز فان التصديق واجب
وهو عن دركه عاجز فان ادعى المعرفة فقد كذب وهذا معنى قول مالك
الكيفية مجهولة يعنى تفصيل المراد به غير معلوم بل الراسخون

في العلم والعارفون من الاولياء ان جاوزوا في المعرفة حدود العوام
وجاوزوا في ميدان المعرفة وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة فما
بقي لهم مما لم يبلغوه وهو بين أيديهم أكثر بل لا نسبة لما طوي عنهم
الى ما كشف لهم لكثرة المطوي وقلة المكشوف بالاضافة اليه
والاضافة الى المطوي المستور (قال سيد الانبياء صلوات الله عليه
لا أحصي ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك) وبالاضافة الى
المكشوف (قال صلوات الله عليه أعرفكم بالله أخوفكم لله وانا
اعرفكم بالله) ولاجل كون العجز والقصور ضروريا في آخر الامر
بالاضافة الى منتهى الحال (قال سيد الصديقين العجز عن درك
الادراك ادراك) فأوائل حقائق هذه المعاني بالاضافة الى عوام
الخلق كأواخرها بالاضافة الى خواص الخلق فكيف لا يجب عليهم
الاعتراف بالعجز (الوظيفة الرابعة) السكوت عن السؤال وذلك
واجب على العوام لانه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه وخائض فيما
ليس اهلا له فان سأل جاهلا زاده جوابه جهلا وربما ورطه في
الكفر من حيث لا يشعر وان سأل عارفا عجز العارف عن تفهيمه بل
عجز عن تفهيم ولده مصلحته في خروجه الى المكتب بل عجز الصائغ
عن تفهيم النجار دقائق صناعته فان النجار وان كان بصيرا بصناعته
فهو عاجز عن دقائق الصياغة لانه انما يعلم دقائق النجر لاستغراقه العمر
في تعلمه وممارسته فكذلك يفهم الصائغ الصياغة ايضا لصرف العمر
الى تعلمه وممارسته وقبل ذلك لا يفهمه فالمشغولون بالدنيا وبالعلوم
التي ليست من قبيل معرفة الله عاجزون عن معرفة الامور الالهية

عجز

عجز كافة المرضى عن الصناعات عن فهمها بل عجز الصبي الرضيع عن الاغتذاء بالخبز اللحم لقصور في فطرته لا لعدم الخبز واللحم ولا لانه قاصر على تغذية الاقوياء لكن طبع الضعفاء قاصر عن التغذي به فمن أطعم الصبي الضعيف اللحم والخبز أو مكنه من تناوله فقد أهلكه وكذلك العامي اذا طلب السؤال هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعله عمر رضي الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات وكما فعله صلى الله عليه وسلم في الانكار على قوم رآهم خاضوا في مسئلة القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام (أفبهذا أمرتم) وقال انما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال) أو لفظا هذا معناه كما اشتهر في الخبر ولهذا أقول يحرم على الوعاظ على رؤس المنابر الجواب عن هذه الاسئلة بالخوض في التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف وهو المبالغة في التقديس ونفي التشبيه وانه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها وله المبالغة في هذا بما اراده حتى يقول كل ما خطر ببالكم وهجس في ضميركم وتصور في خاطركم فالله تعالى خالقها وهو منزه عنها وعن مشابهتها وان ليس المراد بالاخبار شيء من ذلك وأما حقيقة المراد فلستم من أهل معرفتها والسؤال عنها فاشتغلوا بالتقوى فما أمركم الله تعالى به فافعلوه وما نهاكم عنه فاجتنبوه وهذا قد نهيتم عنه فلا تسألوا عنه ومهما سمعتم شيئا من ذلك فاسكتوا وقولوا آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم الا قليلا وليس هذا من جملة ما أوتيناه (الوظيفة الخامسة) الامساك عن التصرف في ألفاظ واردة ويجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ

هذه الاخبار والامساك عن التصرف فيها من ستة أوجه التفسير والتأويل والتصريف والتفريع والجمع والتفريق (الاول) التفسير واعني به تبديل اللفظ بلفظ آخر يقوم مقامها في العربية أو معناها بالفارسية أو التركية بل لا يجوز النطق الا بالالفاظ الواردة لان من الالفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها ومنها ما يوجد لها فارسية تطابقها لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها لها ومنها ما يكون مشتركا في العربية ولا يكون في العجمية كذلك (أما الاول) فمثاله لفظ الاستواء فانه ليس له في الفارسية لفظ مطابق يؤدي بين الفرس من المعنى الذي يؤديه لفظ الاستواء بين العرب بحيث لا يشتمل على مزيد ايهام اذ فارسيته أن يقال راست بايستاد وهذان لفظان (الاول) ينبئ عن انتصاب واستقامة فيما يتصور ان ينحني ويعوج (والثاني) ينبئ عن سكون وثبات فيما يتصور ان يتحرك ويضطرب واشعاره بهذه المعاني واشارته اليها في العجمية أظهر من اشعار لفظ الاستواء واشارته اليها فاذا تفاوتا في الدلالة والاشعار لم يكن هذا مثل الاول وانما يجوز تبديل اللفظ بمثله المرادف له الذي لا يخالفه بوجه من الوجوه لا بما يباينه ولا بما يخالفه ولو بادنى شيء وادقه واخفاه (مثال الثاني) أن الاصبع يستعار في لسان العرب للنعمة يقال لفلان عندي أصبع أي نعمة ومعناها بالفارسية انكشت وما جرت عادة العجم بهذه الاستعارة وتوسع العرب في التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم بل لا نسبة لتوسع العرب الى جمود العجم فاذا حسن ارادة المعنى المستعار

له

له في العرب ومعنى ذلك في العجم بغير القلب عن ما سمع وجوه السمع ولم
يمل اليه فاذا تفاوتا لم يكن التفسير تبديلا بالمثل بل بالخلاف ولا يجوز
التبديل الا بالمثل (مثال الثالث) العرب فان من فسره فانما يفسره
باظهر معانيه فيقول هو جسم وهو مشترك في لغة العرب بين العضو
الباصر وبين الماء والذهب والفضة وليس لفظ چشم وهو مشترك
هذا الاشتراك وكذلك لفظ الجنب والوجه يقرب منه فلاجل هذا نرى
المنع من التبديل والاقتصار على العربية فان قيل هذا التفاوت ان
ادعيتموه في جميع الالفاظ فهو غير صحيح اذ لا فرق بين قولك خبز ونان
وبين قولك لحم وكوشت وان اعترفت بان ذلك في البعض فامنع من
التبديل عند التفاوت لا عند التماثل فالجواب ان الحق ان التفاوت
في البعض لا في الكل فان لفظ اليد ولفظ دست يتساويان في
اللغتين وفي الاشتراك والاستعارة وسائر الامور ولكن اذا انقسم الى
ما يجوز والى ما لا يجوز وليس ادراك التمييز بينهما والوقوف على
دقائق التفاوت جليا سهلا يسيرا على كافة الخلق بل يكثر فيه الاشكال
ولا يتميز محل التفاوت عن محل التعادل فنحن بين أن نحسم الباب
احتياطا اذ لا حاجة ولا ضرورة الى التبديل وبين أن نفتح الباب
ونقحم عموم الخلق ورطة الخطر فليت شعري أي الامرين أحزم وأحوط
والمحظور فيه ذات الاله وصفاته وما عندي أن عاقلا متدينا لا يقر بان
هذا الامر مختار فان الخطر في الصفات الالهية يجب اجتنابه كيف
وقد أوجب الشرع على الموطوءة العدة لبراءة الرحم وللحذر من خلط
الانساب احتياطا لحكم الولاية والوراثة وما يترتب على النسب فقالوا

مع ذلك تجب العدة على العقيم والآيسة والصغيرة وعند العزل لأن
باطن الأرحام إنما يطلع عليه علام الغيوب فانه يعلم ما في الأرحام فلو
فتحنا باب النظر الى التفصيل كنا راكبين متن الخطر فايجاب العدة حيث
لا علوق أهون من ركوب هذا الخطر. فكما أن ايجاب العدة حكم شرعي
فتحريم تبديل العربية حكم شرعي ثبت بالاجتهاد وترجيح طريق
الأول ويعلم أن الاحتياط في الخبر عن الله وعن صفاته وعن ارادته
بألفاظ القرآن أهم وأولى من الاحتياط في العدة ومن كل ما احتاط
به الفقهاء من هذا القبيل (أما التصريف الثاني) التأويل وهو
بيان معناه بعد ازالة ظاهره وهذا اما أن يقع من العامي نفسه أو من
العارف مع العامي أو من العارف مع نفسه بينه وبين ربه فهذه ثلاثة
مواضع (الأول) تأويل العامي على سبيل الاشتغال بنفسه وهو
حرام يشبه خوض البحر المغرق ممن لا يحسن السباحة ولا شك في تحريم
ذلك وبحر معرفة الله أبعد غورا وأكثر معاطب ومهالك من بحر الماء
لأن هلاك هذا البحر لا حياة بعده وهلاك بحر الدنيا لا يزيل الا الحياة
الفانية وذلك يزيل الحياة الأبدية فشتان بين الخطرين (الموضع الثاني)
أن يكون ذلك من العالم مع العامي وهو أيضا ممنوع ومثاله أن يجر
السباح الغواص في البحر مع نفسه عاجزا عن السباحة مضطرب القلب
والبدن وذلك حرام لأنه عرضه لخطر الهلاك فانه لا يقوى على حفظه
في لجة البحر وان قدر على حفظه في القرب من الساحل ولو أمره بالوقوف
بقرب الساحل لا يطيعه وان أمره بالسكون عند التطام الأمواج
واقبال التماسيح وقد فغرت فاها للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم

يمكن

يسكن على حسب مراده لقصور طاقته وهذا هو المثال الحق للعالم إذا
فتح للعامي باب التأويلات والتصرف في خلاف الظواهر وفي معنى
العوام الأديب والنحوي والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل كل
عالم سوى المتجردين لتعلم السباحة في بحار المعرفة القاصرين
أعمارهم عليه الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات المعرضين
عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات المخلصين لله تعالى في العلوم
والأعمال العاملين بجميع حدود الشريعة وآدابها في القيام
بالطاعات وترك المنكرات المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى لله
المستحقرين للدنيا بل الآخرة والفردوس الأعلى في جنب محبة الله
تعالى فهؤلاء هم أهل الغوص في بحر المعرفة وهم مع ذلك كله على خطر
عظيم يهلك من العشرة تسعة إلى أن يسعد واحد بالدر المكنون والسر
المخزون (أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى فهم الفائزون وربك
أعلم بما تكن صدورهم وما يعلنون (الموضع الثالث) تأويل
العارف مع نفسه في سر قلبه بينه وبين ربه وهو على ثلاثة أوجه فإن
الذي انقدح في سره أن المراد به من لفظ الاستواء والفوق مثلاً إما أن
يكون مقطوعاً به أو مشكوكاً فيه أو مظنوناً ظناً غالباً فإن كان قطعياً
فليعتقده وإن كان مشكوكاً فليجتنبه ولا يحكمن على مراد الله تعالى
ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم من كلامه باحتمال يعارضه مثله
من غير ترجيح بل الواجب على الشاك التوقف وإن كان مظنوناً فاعلم أن
للظن متعلقين أحدهما أن المعنى الذي انقدح عنده هل هو جائز في
حق الله تعالى أم هو محال (والثاني أن يعلم قطعاً جوازه لكن تردد

في أنه هل هو مراد أم لا (مثال الأول) تأويل لفظ الفوق بالعلو المعنوي الذي هو المراد بقولنا السلطان فوق الوزير فانا لا نشك في ثبوت معناه لله تعالى لكنا ربما نتردد في أن لفظ الفوق (في قوله يخافون ربهم من فوقهم) هل أريد به العلو المعنوي أم أريد به معنى آخر لائق بجلال الله تعالى دون العلو بالمكان الذي هو محال على ما ليس بجسم ولا هو صفة في جسم (ومثال الثاني) تأويل لفظ الاستواء على العرش بانه أراد به النسبة الخاصة التي للعرش ونسبته ان الله تعالى يتصرف في جميع العالم ويدبر الامر من السماء الى الارض بواسطة العرش فانه لا يحدث في العالم صورة ما لم يحدثه في العرش كما لا يحدث النقاش والكاتب صورة وكلمة على البياض ما لم يحدثه في الدماغ بل لا يحدث البناء صورة الابنية ما لم يحدث صورتها في الدماغ فبواسطة الدماغ يدبر القلب امر عالمه الذي هو بدنه فربما نتردد في ان اثبات هذه النسبة للعرش الى الله تعالى هل هو جائز اما لوجوبه في نفسه أو لانه اجرى به سنته وعادته وان لم يكن خلافه محالا كما اجرى عادته في حق قلب الانسان بان لا يمكنه التدبير الا بواسطة الدماغ وان كان في قدرة الله تعالى تمكينه منه دون الدماغ لو سبقت به ارادته الازلية وحقت به الكلمة القديمة التي هي علمه فصار خلافه ممتنعا لا لقصور في ذات القدرة لكن لاستحالة ما يخالف الارادة القديمة والعلم السابق الازلي ولذلك قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) وانما لا تبدل لوجوبها او لوجوب صدورها عن ارادة ازلية واجبة ونتيجة الواجب واجبة ونقيضها محال وان لم يكن محالا في ذاته

ولكنه

ولكنه محال لغيره وهو افضاؤه الى ان ينقلب العلم الازلي جهلا وعنع نفوذ المشيئة الازلية فاذا اثبات هذه النسبة لله تعالى مع العرش في تدبير المملكة بواسطته ان كان جائزا عقلا فهل واقع وجوده ذلك مما قد يتردد فيه الناظر وربما يظن وجود هذا مثال الظن في نفس المعنى والاول مثال الظن في كون المعنى مرادا باللفظ مع كون المعنى في نفسه صحيحا جائزا وبينهما فرقان لكن كل واحد من الظنين اذا انقدح في النفس وحاك في الصدر فلا يدخل تحت الاختيار دفعه عن النفس ولا يمكنه ان لا يظن فان للظن اسبابا ضرورية لا يمكن دفعها ولا يكلف الله نفسا الا وسعها لكن عليه وظيفتان احدهما ان لا يدع نفسه تطمئن اليه جزما من غير شعور بامكان الغلط فيه ولا ينبغي ان يحكم مع نفسه بموجب ظنه حكما جازما (والثانية) انه ان ذكره لم يطلق القول بان المراد بالاستواء كذا أو المراد بالفوق كذا لانه حكم بما لا يعلم وقد قال الله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) لكن يقول انا اظن انه كذا فيكون صادقا في خبره عن نفسه وعن ضميره ولا يكون حكما على صفة الله ولا على مراده بكلامه بل حكما على نفسه ونبأ عن ضميره فان قيل وهل يجوز ذكر هذا الظن مع كافة الخلق والتحدث به كما اشتمل عليه ضميره وكذلك لو كان قاطعا فهل له ان يتحدث به قلنا التحدث به انما يكون على اربعة اوجه فاما ان يكون مع نفسه أو مع من هو مثله في الاستبصار أو مع من هو مستعد للاستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله تعالى أو مع العامي فان كان قاطعا فله ان يحدث نفسه به ويحدث من هو مثله في الاستبصار أو من

هو متجرد لطلب المعرفة مستعد له خال عن الميل الى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه لان الفطن المتعطش الى المعرفة للمعرفة لا لغرض آخر يحيك فى صدره اشكال الظواهر وربما يلقيه فى تأويلات فاسدة لشدة شرهه على الفرار عن مقتضى الظواهر ومنع العلم اهله ظلم كبثه الى غير أهله واما العامى فلا ينبغى ان يحدث به وفى معنى العامى كل من لا يتصف بالصفات المذكورة بل مثاله ماذكرناه من اطعام الرضيع الاطعمة القوية التى لا يطيقها واما المظنون فتحدثه مع نفسه اضطرار فان ما ينطوى عليه الذهن من ظن وشك وقطع لا يزال النفس يتحدث به ولا قدرة على الخلاص منه فلا منع منه فلا شك فى منع التحدث به مع العوام بل هو اولى بالمنع من المقطوع أما تحدثه مع من هو فى مثل درجته فى المعرفة أو مع المستعد له ففيه نظر فيحتمل ان يقال هو جائز ولا يزيد على ان يقول الظن كذا وهو صادق ويحتمل المنع لانه قادر على تركه وهو بذكره متصرف بالظن فى صفة الله تعالى أو فى مراده من كلامه وفيه خطر واباحته تعرف بنص أو اجماع أو قياس على منصوص ولم يرد شىء من ذلك بل ورد قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) فان قيل يدل على الجواز ثلاثة أمور (الاول) الدليل الذى دل على اباحة الصدق وهو صادق فانه ليس يخبر الا عن ظنه وهو ظان (الثانى) تأويل المفسرين فى القرآن بالحدس والظن اذ كل ماقالوه غير مسموع من الرسول عليه السلام بل هو مستنبط بالاجتهاد

ولذلك

ولذلك كثرت الاقاويل وتعارضت (والثالث) اجماع التابعين على نقل الاخبار المتشابهة التي نقلها آحاد الصحابة ولم تتواتر وما اشتمل عليه الصحيح الذي نقله العدل عن العدل فانهم جوزوا روايته ولا يحصل بقول العدل الا الظن والجواب عن الاول ان المباح صدق لا يخشى منه ضرر وبث هذه الظنون لا يخلو عن ضرر فقد يسمعه من يسكن اليه ويعتقده جزما فيحكم في صفات الله تعالى بغير علم وهو خطر والنفوس نافرة عن اشكال الظواهر فاذا وجد مسترو حامن المعنى ولو كان مظنونا سكن اليه واعتقده جزما وربما يكون غالطا فيكون قد اعتقد في صفات الله تعالى ما هو الباطل أو حكم عليه في كلامه بما لم يرد به (وأما الثاني) وهو اقاويل المفسرين بالظن فلا نسلم ذلك فيما هو من صفات الله تعالى كالاستواء والفوق وغيره بل لعل ذلك في الاحكام الفقهية اوفي حكايات احوال الانبياء والكفار والمواعظ والامثال وما لا يعظم خطر الخطاء فيه (وأما الثالث) فقد قال قائلون لا يجوز ان يعتمد في هذا الباب الا ما ورد في القرآن او تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم تواترا يفيد العلم فأما اخبار الآحاد فلا يقبل فيه ولا نشتغل بتأويله عند من يميل الى التأويل ولا بروايته عند من يقتصر على الرواية لان ذلك حكم بالظنون واعتماد عليه وما ذكروه ليس بمعتدل لانه مخالف لظاهر ما درج عليه السلف فانهم قبلوا هذه الاخبار من العدول ورووها وصححوها فالجواب من وجهين (أحدهما) ان التابعين كانوا قد عرفوا من أدلة الشرع انه لا يجوز اتهام العدل بالكذب لاسيما في صفات الله تعالى فاذا

روى الصديق رضي الله عنه خبرا وقال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول كذا فرد روايته تكذيب له ونسبة له الى الوضع أو الى
السهو فقبلوه وقالوا قال ابو بكر قال رسول الله عليه السلام وقال أنس
قال رسول الله عليه السلام وكذا في التابعين فالآن اذا ثبت
عندهم بأدلة الشرع انه لا سبيل الى اتهام العدل التقي من الصحابة
رضوان الله عليهم أجمعين فمن أين يجب أن لا يتهم ظنون الآحاد وان
ينزل الظن منزلة نقل العدل مع ان بعض الظن اثم فاذا قال الشارع
ما اخبركم به العدل فصدقوه واقبلوه وانقلوه وأظهروه فلا يلزم من
هذا أن يقال ما حدثتكم به نفوسكم من ظنونكم فاقبلوه وأظهروه
وارووا عن ظنونكم وضمائركم ونفوسكم ما قالته فليس هذا في معنى
المنصوص ولهذا نقول ما رواه غير العدل من هذا الجنس ينبغي أن
يعرض عنه ولا يروى ويحتاط فيه أكثر مما يحتاط في المواعظ والامثال
وما يجري مجراها (والجواب الثاني) ان تلك الاخبار رواتها الصحابة
لانهم سمعوه يقينا فما نقلوا الا ما تيقنوه والتابعون قبلوه ورووه وما
قالوا قال رسول الله عليه السلام كذا بل قالوا قال فلان قال رسول الله
عليه السلام كذا وكانوا صادقين وما أهملوا روايته لاشتمال كل
حديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنى حقيقيا
يفهمه منه ليس ذلك ظنيا في حقه مثاله رواية الصحابي عن رسول الله
عليه السلام (قوله ينزل الله تعالى كل ليلة الى السماء الدنيا فيقول
هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فاغفر له) الحديث فهذا
الحديث سيق لنهاية الترغيب في قيام الليل وله تأثير عظيم في تحريك

الدواعي للتهجد الذي هو افضل العبادات فلو ترك هذا الحديث
لبطلت هذه الفائدة العظيمة ولا سبيل الى اهمالها وليس فيه الا
ايهام لفظ النزول عند الصبي والعامي الجاري مجرى الصبي وما أهون
على البصير ان يغرس في قلب العامي التنزيه والتقديس عن صورة
النزول بان يقول له ان كان نزوله الى السماء الدنيا ليسمعنا نداءه
وقوله فما أسمعنا فأي فائدة في نزوله ولقد كان يمكنه ان ينادينا
كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا فهذا القدر يعرف
العامي ان ظاهر النزول باطل بل مثاله ان يريد من في المشرق اسماع
شخص في المغرب ومناداته فيتقدم الى المغرب باقدام معدودة وأخذ
يناديه وهو يعلم انه لا يسمع فيكون نقله الاقدام عملا باطلا وفعلا
كفعل المجانين فكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل بل يضطر بهذا
القدر كل عامي الى أن يتيقن نفي صورة النزول وكيف وقد علم استحالة
الجسمية عليه واستحالة الانتقال على غير الاجسام كاستحالة النزول من
غير انتقال فاذا الفائدة في نقل هذه الاخبار عظيمة والضرر يسير فاني
يساوي هذا حكاية الظنون المنقدحة في الانفس فهذه سبل تجاذب
طرق الاجتهاد في اباحة ذكر التأويل المظنون أو المنع ولا يبعد ذكر وجه
ثالث وهو أن ينظر الى قرائن حال السائل والمستمع فان علم انه ينتفع
بذكره وان علم انه يتضرر بتركه وان ظن أحد الامرين كان ظنه كالعلم
في اباحة الذكر وكم من انسان لا تتحرك داعيته باطنا الى معرفة هذه
المعاني ولا يحيك في نفسه اشكال من ظواهرها فذكر التأويل معه
مشوش وكم من انسان يحيك في نفسه اشكال الظاهر حتى يكاد ان

يسوء اعتقاده في الرسول عليه السلام وينكر قوله الموهم فمثل هذا لو ذكر معه الاحتمال المظنون بل مجرد الاحتمال الذي ينبو عنه اللفظ انتفع به ولا بأس بذكره معه فانه دواء لدائه وان كان داء في غيره ولكن لا ينبغي أن يذكر على رؤس المنابر لان ذلك يحرك الدواعي الساكنة من أكثر المستمعين وقد كانوا عنه غافلين وعن اشكاله منفكين ولما كان زمان السلف الاول زمان سكون القلب بالغوا في الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعي وتشويش القلوب فمن خالفهم في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك في القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالاثم أما الآن وقد فشا ذلك في بعض البلاد فالعذر في اظهار شيء من ذلك رجاء لاماطة الاوهام الباطلة عن القلوب أظهر واللوم عن قائله أقل فان قيل فقد فرقتم بين التأويل المقطوع والمظنون فبماذا يحصل القطع بصحة التأويل قلنا بأمرين (أحدهما) ان يكون المعنى مقطوعا بثبوته لله تعالى كفوقية الرتبة (والثاني) أن لا يكون اللفظ الا محتملا للامرين وقد بطل أحدهما وتعين الثاني مثاله قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) فانه ان ظهر في وضع اللسان ان الفوق لا يحتمل الا فوقية المكان أو فوقية الرتبة وقد بطل فوقية المكان لمعرفة التقديس لم يبق الا فوقية الرتبة كما يقال السيد فوق العبد والزوج فوق الزوجة والسلطان فوق الوزير فالله فوق عباده بهذا المعنى وهذا كالمقطوع به في لفظ الفوق وانه لا يستعمل في لسان العرب الا في هذين المعنيين أما لفظ الاستواء الى السماء وعلى العرش ربما لا ينحصر مفهومه في اللغة هذا

الانحصار

الانحصار واذا تردد بين ثلاثة معان معنيان جائزان على الله تعالى ومعنى واحد هو الباطل فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين ان يكون بالظن وبالاحتمال المجرد وهذا تمام النظر في الكف عن التأويل (التصرف الثالث) الذي يجب الامساك عنه التصريف ومعناه انه اذا ورد قوله تعالى (استوى على العرش) فلا ينبغي أن يقال مستو ويستوي لان المعنى يجوز ان يختلف لان دلالة قوله هو مستو على العرش على الاستقرار أظهر من قوله (رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) الآية بل هو كقوله (خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء) فان هذا يدل على استواء قد انقضى من اقبال على خلقه أو على تدبير المملكة بواسطته ففي تغيير التصاريف ما يوثق في تغيير الدلالات والاحتمالات فليجتنب التصريف كما يجتنب الزيادة فان تحت التصريف الزيادة والنقصان (التصرف الرابع) الذي يجب الامساك عنه القياس والتفريع مثل أن يرد لفظ اليد فلا يجوز اثبات الساعد والعضد والكف مصيرا الى أن هذا من لوازم اليد واذا ورد الاصبع لم يجز ذكر الانملة كما لا يجوز ذكر اللحم والعظم والعصب وان كانت اليد المشهورة لا تنفك عنه وأبعد من هذه الزيادة اثبات الرجل عند ورود اليد واثبات الفم عند ورود العين أو عند ورود الضحك واثبات الاذن والعين عند ورود السمع والبصر وكل ذلك محال وكذب وزيادة وقد تجاسر بعض الحمقى من المشبهة الحشوية فالذلك ذكرناه (التصرف الخامس) لا يجمع بين متفرق ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتابا في جمع هذه الاخبار

خاصة ورسم في كل عضو بابا فقال باب في اثبات الرأس وباب في اليد الى غير ذلك وسماه كتاب الصفات فان هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله عليه السلام في أوقات متفرقة متباعدة اعتمادا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معاني صحيحة فاذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الانسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة قرينة عظيمة في تأكيد الظاهر وايهام التشبيه وصار الاشكال في أن الرسول عليه السلام لم ينطق بما يوهم خلاف الحق أعظم في النفس وأوقع بل الكلمة الواحدة يتطرق اليها الاحتمال فاذا اتصل بها ثانية وثالثة ورابعة من جنس واحد صار متواليا يضعف الاحتمال بالاضافة الى الجملة ولذلك يحصل من الظن بقول المخبرين وثلاثة ما لا يحصل بقول الواحد بل يحصل من العلم القطعي بخبر التواتر ما لا يحصل بالآحاد ويحصل من العلم القطعي باجتماع التواتر ما لا يحصل بالآحاد وكل ذلك نتيجة الاجتماع اذ يتطرق الاحتمال الى قول كل عدل والى كل واحدة من القرائن فاذا انقطع الاحتمال أو ضعف فلذلك لا يجوز جمع المتفرقات (التصرف السادس) التفريق بين المجتمعات فكما لا يجمع بين متفرقة فلا يفرق بين مجتمعة فان كل كلمة سابقة على كلمة أو لاحقة لها مؤثرة في تفهيم معناه مطلقا ومرجحة الاحتمال الضعيف فيه فاذا فرقت وفصلت سقطت دلالتها مثاله قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) لا تسلط على أن يقول القائل هو فوق لانه اذا ذكر القاهر قبله ظهر دلالة الفوق على الفوقية التي للقاهر مع المقهور وهي فوقية الرتبة ولفظ القاهر يدل عليه

بل

بل لا يجوز أن يقول وهو القاهر فوق غيره بل ينبغي أن يقول فوق عباده لان ذكر العبودية في وصفه في الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السيادة اذ يحسن أن يقال زيد فوق عمرو قبل أن يتبين تفاوتهما في معنى السيادة والعبودية أو غلبة القهر أو نفوذ الامر بالسلطنة أو بالابوة أو بالزوجية فهذه الامور يغفل عنها العلماء فضلا عن العوام فكيف يسلط العوام في مثل ذلك على التصرف بالجمع والتفريق والتأويل والتفسير وأنواع التغيير ولاجل هذه الدقائق بالغ السلف في الجمود والاقتصار على موارد التوقيف كما ورد على الوجه الذي ورد وباللفظ الذي ورد والحق ما قالوه والصواب ما رأوه فأهم المواضع بالاحتياط ما هو تصرف في ذات الله وصفاته وأحق المواضع بالجام اللسان وتقييده عن الجريان فيما يعظم فيه الخطر وأي خطر أعظم من الكفر (الوظيفة السادسة) في الكف بعد الامساك وأعني بالكف كف الباطن عن التفكر في هذه الامور فذلك واجب عليه كما وجب عليه امساك اللسان عن السؤال والتصرف وهذا أثقل الوظائف وأشدها وهو واجب كما وجب على العاجز الزمن أن لا يخوض غمرة البحار وان كان يتقاضاه طبعه أن يغوص في البحار ويخرج دررها وجواهرها ولكن لا ينبغي أن يغره نفاسة جواهرها مع عجزه عن نيلها بل ينبغي أن ينظر الى عجزه وكثرة معاطبها ومهالكها ويتفكر انه ان فاته نفائس البحار فما فاته الا زيادات وتوسعات في المعيشة وهو مستغن عنها فان غرق أو التقمه تمساح فاته أصل الحياة فان قلت ان لم ينصرف قلبه من التفكر والتشوف الى البحث فما

طريقه قلت طريقه أن يشغل نفسه بعبادة الله وبالصلاة وقراءة القرآن والذكر فان لم يقدر فبعلم آخر لا يناسب هذا الجنس من لغة أو نحو أو خط أو طب أو فقه فان لم يمكنه فبحرفة أو صناعة ولو الحراثة والحياكة فان لم يقدر فبلعب ولهو وكل ذلك خير له من الخوض في هذا البحر البعيد غوره وعمقه العظيم خطره وضرره بل لو اشتغل العامي بالمعاصي البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن معرفة الله تعالى فان ذلك غايته الفسق وهذا عاقبته الشرك وأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فان قلت العامي اذا لم تسكن نفسه الى الاعتقادات الدينية الا بدليل فهل يجوز أن يذكر له الدليل فان جوزت ذلك فقد رخصت له في التفكر والنظر وأي فرق بينه وبين غيره الجواب اني أجوز له أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخر ولكن بشرطين (أحدهما) أن لا يزاد معه على الادلة التي في القرآن (والآخر) أن لا يماري فيه الامراء ظاهرا ولا يتفكر فيه الا تفكرا سهلا جليا ولا يمعن في التفكر ولا يوغل غاية الايغال في البحث وأدلة هذه الامور الاربعة ماذكر في القرآن أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله) وقوله أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

ونزلنا

وأنزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد (وكقوله) فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا (وقوله) ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا الى قوله وجنات ألفافا وأمثال ذلك وهي قريب من خمسمائة آية جمعناها في كتاب جواهر القرآن بها ينبغي أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين ان الاعراض حادثة وان الجواهر لا تخلو عن الاعراض الحادثة فهي حادثة ثم الحادث يفتقر الى محدث فان تلك التقسيمات والمقدمات واثباتها بادلتها الرسمية يشوش قلوب العوام والدلالات الظاهرة القريبة من الافهام على ما في القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما في القرآن من قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فان اجتماع المدبرين سبب افساد التدبير (ومثل) قوله لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا وقوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض (وأما صدق) الرسول فيستدل عليه بقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وبقوله فأتوا بسورة من مثله وقوله قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأمثاله (وأما اليوم الآخر) فيستدل عليه من قوله قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة

وبقوله أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من م
قوله أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى وبقوله يا أيها النا
في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الى قوله فاذا أنزلنا
اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحيى الموتى وامثال ذلك كثير في
فلا ينبغي أن يزاد عليه فان قيل فهذه الادلة التي اعتمدها الم
وقرروا وجه دلالتها فلم تمنعون عن تقرير هذه الادلة ولا تمن
منها وكل ذلك مدرك بنظر العقل وتأمله فان فتح للعامي باب الن
فليفتح مطلقا أو ليسد عليه طريق النظر رأسا وليكلف التقليد من غ
دليل (الجواب ان الادلة تنقسم الى ما يحتاج فيه الى تفكر وتدقيق
خارج عن طاقة العامي وقدرته والى ما هو جلي سابق الى الافه
ببادى الرأى من أول النظر مما يدركه كافة الناس بسهولة فهذا لا خ
فيه وما يفتقر الى التدقيق فليس على حد وسعه فأدلة القرآن م
الغذاء ينتفع به كل انسان وادلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آح
الناس ويستضر به الاكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع
الصبي الرضيع والرجل القوى وسائر الادلة كالاطعمة التي ينتفع
الاقويا مرة ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان اصلا ولهذ
قلنا أدلة القرآن أيضا ينبغي ان يصغى اليها اصغاءه الى كلام جلي
يماري فيه الامراء ظاهرا ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحق
النظر فمن الجلي ان من قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر كما
هو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وان التدبير لا ين
في دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم في كل العالم وان من خلق

كما

قال تعالى ألا يعلم من خلق فهذه الادلة تجرى للعوام مجرى الماء
الذى جعل الله منه كل شيء حي وما أحدثه المتكلمون وراء ذلك من
تحرير سؤال وتوجيه اشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره فى
حق أكثر الخلق ظاهر فهو الذى ينبغى ان يتوقى والدليل على تضرر
الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ
المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الاول من الصحابة
عن مثل ذلك ويدل عليه أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة
باجمعهم ما سلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمين فى تقسيماتهم
وتدقيقاتهم لا لعجزهم عن ذلك فلو علموا ان ذلك نافع لاطنبوا فيه
وخاضوا فى تحرير الادلة خوضا يزيد على خوضهم فى مسائل
الفرائض فان قيل انما امسكوا عنه لقلة الحاجة فان البدع انما نبغت
بعدهم فعظم حاجة المتأخرين وعلم الكلام راجع الى علم معالجة
المرضى بالبدع فلما قلت فى زمانهم امراض البدع قلت عنايتهم
بجمع طرق المعالجة فالجواب من وجهين (احدهما) انهم فى مسائل
الفرائض ما اقتصروا على بيان حكم الوقائع بل وضعوا المسائل وفرضوا
ما تنقضى الدهور ولا يقع مثله لان ذلك مما أمكن وقوعه فصنفوا
علم ورتبوه قبل وقوعه اذ علموا انه لا ضرر فى الخوض فيه وفى بيان
حكم الواقعة قبل وقوعها والعناية بازالة البدع ونزعها عن النفوس
ولم يتخذوا ذلك صناعة لانهم عرفوا ان الاستضرار بالخوض فيه
اكثر من الانتفاع ولولا انهم كانوا قد حذروا من ذلك وفهموا تحريم
الذى خاضوا فيه (والجواب الثانى) انهم كانوا محتاجين الى محاجة

اليهود والنصارى في اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والى اثبات
البعث مع منكريه ثم ما زادوا في هذه القواعد التي هي أمهات العقائد
على أدلة القرآن فمن أقنعه ذلك قبلوه ومن لم يقنع قتلوه وعدلوا
الى السيف والسنان بعد افشاء أدلة القرآن وما ركبوا ظهر اللجاج في
وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طريق المجادلة
وتذليل طرقها ومنهاجها كل ذلك لعلمهم بان ذلك مثار الفتن ومنبع
التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه الا السيف والسنان
فما بعد بيان الله بيان على انا ننصف ولا ننكر ان حاجة المعالجة
تزيد بزيادة المرض وان لطول الزمان وبعد العهد عن عصر النبوة تأثيرا
في اثارة الاشكالات وان للعلاج طريقين (احدهما) الخوض في
البيان والبرهان الى ان يصلح واحد ويفسد به اثنان فان صلاحه
بالاضافة الى الاكياس وفساده بالاضافة الى البله وما أقل الاكياس
وما أكثر البله والعناية بالاكثرين أولى (والطريق الثاني) طريق
السلف في الكف والسكوت والعدول الى الدرة والسوط والسيف
وذلك مما يقنع الاكثرين وان كان لا يقنع الاقلين وآية اقناعه ان من
يسترق من الكفار من العبيد والاماء تراهم يسلمون تحت ظلال
السيوف ثم يستمرون عليه حتى يصير طوعا ما كان في البداية كرها
ويصير اعتقادا جزما ما كان في الابتداء مراء وشكا وذلك بمشاهدة
أهل الدين والمؤانسة بهم وسماع كلام الله ورؤية الصالحين وخبرهم
وقرائن من هذا الجنس تناسب طباعهم مناسبة أشد من مناسبة
الجدل والدليل فاذا كان كل واحد من العلاجين يناسب قوما دون

قوم

قوم وجب ترجيح الانفع فى الاكثر فالمناصرون للمذهب الاول المؤيد بروح القدس المكاشف من الحضرة الالهية الموحى اليه من الخبير البصير باسرار عباده و بواطنهم أعرف بالاصوب والاصلح قطعا فسلوك سبيلهم لامحالة اولى (الوظيفة السابعة) التسليم لاهل المعرفة وبيانه انه يجب على العامى ان يعتقد ان ما انطوى عنه من معانى هذه الظواهر واسرارها ليس منطويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصديق وعن أكابر الصحابة وعن الاولياء والعلماء الراسخين وانه انما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته فلا ينبغى ان يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين وليس ما يخلو عنه مخادع العجائز يلزم منه ان يخلو عنه خزائن الملوك فقد خلق الناس اشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر فانظر الى تفاوتهما وتباعد ما بينهما صورة ولونا وخاصية ونفاسة فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله تعالى وبعضها معدن للشهوات البهيمية والاخلاق الشيطانية بل ترى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات فقد يقدر واحد بخفة يده وحذاقة صناعته على أمور لا يطمع الآخر فى بلوغ اوائله فضلا عن غايته ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره فكذلك معرفة الله تعالى بل انما ينقسم الناس الى جبان عاجز لا يطيق النظر الى اتطام امواج البحر وان كان على ساحله والى من يطيق ذلك ولكن لا يمكنه الخوض باطرافه وان كان قائما فى الماء على رجله والى من يطيق ذلك لكن لا يطيق رفع الرجل عن الارض اعتمادا على السباحة والى من يطيق

السباحة الى حد قريب من الشط لكن لا يطيق خوض البحر الى لجته والمواضع المغرقة المخطرة والى من يطيق ذلك لكن لا يطيق الغوص فى عمق البحر الى مستقره الذى فيه نفائسه وجواهره فهكذا مثال بحر المعرفة وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق (فان قيل) فالعارفون محيطون بكمال معرفة الله سبحانه حتى لا ينطوى عنهم شئ قلنا هيهات فقد بينا بالبرهان القطعى فى كتاب المقصد الاقصى فى معانى أسماء الله الحسنى أنه لا يعرف الله كنه معرفته الا الله وان الخلائق وان اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فاذا أضيف ذلك الى علم الله سبحانه فما أوتوا من العلم الا قليلا لكن ينبغى أن يعلم ان الحضرة الالهية محيطة بكل ما فى الوجود اذ ليس فى الوجود الا الله وأفعاله فالكل من الحضرة الالهية كما ان جميع أرباب الولايات فى المعسكر حتى الحراس هم من المعسكر فهم من جملة الحضرة السلطانية وأنت لا تفهم الحضرة الالهية الا بالتمثيل الى الحضرة السلطانية فاعلم ان كل ما فى الوجود داخل فى الحضرة الالهية ولكن كما ان السلطان له فى مملكته قصر خاص وفى فناء قصره ميدان واسع ولذلك الميدان عتبة يجتمع عليها جميع الرعايا ولا يمكنون من مجاوزة العتبة ولا الى طرف الميدان ثم يؤذن لخواص المملكة فى مجاوزة العتبة ودخول الميدان والجلوس فيه على تفاوت فى القرب والبعد بحسب مناصبهم وربما لم يطرق الى القصر الخاص الا الوزير وحده ثم ان الملك يطلع الوزير من اسرار ملكه على ما يريد ويستأثر عنه بأمور لا يطلعه عليها فكذلك فافهم على هذا المثال تفاوت الخلق فى

القرب

والبعد من الحضرة الالهية فالعتبة التي هي آخر الميدان موقف جميع العوام ومردهم لا سبيل لهم الى مجاوزتها فان جاوزوا حدهم استوجبوا الزجر والتنكيل واما العارفون فقد جاوزوا العتبة وانسرحوا في الميدان ولهم فيه جولان على حدود مختلفة في القرب والبعد وتفاوت ما بينهم كثير وان اشتركوا في مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين واما حظيرة القدس في صدر الميدان فهي أعلى من ان يطاها اقدام العارفين وارفع من ان يمتد اليها أبصار الناظرين بل لا يلمح ذلك الجناب الرفيع صغير وكبير الا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب اليه البصر خاسئا وهو حسير فهذا ما يجب على العامي ان يؤمن به جملة وان لم يحط به تفصيلا فهذه هي الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق في هذه الاخبار التي سألت عنها وهي حقيقة مذهب السلف واما الآن فنشتغل باقامة الدليل على ان الحق هو مذهب السلف

﴿الباب الثاني في اقامة البرهان على ان الحق مذهب السلف﴾

وعليه برهانان عقلي وسمعي اما العقلي فاثنان كلي وتفصيلي اما البرهان الكلي على ان الحق مذهب السلف فينكشف بتسليم اربعة اصول هي مسلمة عند كل عاقل (الاول) ان اعرف الخلق بصلاح احوال العباد بالاضافة الى حسن المعاد هو النبي صلى الله عليه وسلم فان ما ينتفع به في الآخرة أو يضر لا سبيل الى معرفته بالتجربة كما عرف الطب اذ لا مجال للعلوم التجريبية الا فيما يشاهد على سبيل التكرر ومن الذي رجع من ذلك العالم فادرك بالمشاهدة ما نفع وضر واخبر عنه ولا يدرك بقياس العقل فان العقول قاصرة عن ذلك

والعقلاء باجمعهم معترفون بان العقل لا يهتدي الى ما بعد الموت ولا يرشد الى وجه ضرر المعاصي ونفع الطاعات لا سيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل اقروا باجمعهم ان ذلك لا يدرك الا بنور النبوة وهي قوة وراء قوة العقل يدرك بها ما من امر الغيب في الماضي والمستقبل امور لا على طريق التعرف بالاسباب العقلية وهذا مما اتفق عليه الاوائل من الحكماء فضلا عن الاولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة (الاصل الثاني) انه صلى الله عليه وسلم افاض الى الخلق ما أوحي اليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم وانه ما كتم شيئا من الوحي واخفاه وطواه عن الخلق فانه لم يبعث الا لذلك ولذلك كان رحمة للعالمين فلم يكن متهما فيه وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن احواله في حرصه على اصلاح الخلق وشغفه بارشادهم الى صلاح معاشهم ومعادهم فما ترك شيأ مما يقرب الخلق الى الجنة ورضاء الخالق الا دلهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه ولا شيأ مما يقربهم الى النار والى سخط الله الا حذرهم منه ونهاهم عنه وذلك في العلم والعمل جميعا (الاصل الثالث) ان أعرف الناس بمعاني كلامه واحراهم بالوقوف على كنهه ودرك اسراره الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه وصاحبوه بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معاني كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولا وللنقل الى من بعدهم ثانيا وللتقرب الى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره وهم الذين حثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

على السماع والفهم والحفظ والاداء فقال (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها) الحديث فليت شعري أيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باخفائه وكتمانه عنهم حاشا منصب النبوة عن ذلك أو يتهم أولئك الاكابر في فهم كلامه وادراك مقاصده وأيتهمون في اخفائه واسراره بعد الفهم أو يتهمون في معاندته من حيث العمل ومخالفته على سبيل المكابرة مع الاعتراف بتفهيمه وتكليفه فهذه أمور لا يتسع لتقديرها عقل عاقل (الاصل الرابع) انهم في طول عصرهم الى آخر اعمارهم مادعوا الخلق الى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرض لمثل هذه الامور بل بالغوا في زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به على ما سنحكيه عنهم فلو كان ذلك من الدين أو كان من مدارك الاحكام وعلم الدين لاقبلوا عليه ليلا ونهارا ودعوا اليه أولادهم واهليهم وشمروا عن ساق الجد في تأسيس اصوله وشرح قوانينه تشمرا أبلغ من تشمرهم في تمهيد قواعد الفرائض والمواريث فنعلم بالقطع من هذه الاصول ان الحق ما قالوه والصواب ما رأوه لاسيما وقد اثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) وقال صلى الله عليه وسلم (ستفترق امتي نيفا وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة) فقيل من هم فقال (أهل السنة والجماعة) فقيل وما أهل السنة والجماعة فقال (ما انا عليه الآن واصحابي) (البرهان الثاني) وهو التفصيلي فنقول ادعينا ان الحق هو مذهب السلف وان مذهب السلف هو توظيف الوظائف السبع على عوام

الخالق في ظواهر الاخبار المتشابهة وقد ذكرنا برهان كل وظيفة معها فهو برهان كونه حقا فمن يخالف ليت شعري أيخالف في قولنا الاول انه يجب على العامي التقديس للحق عن التشبيه ومشابهة الاجسام أو في قولنا الثاني انه يجب عليه التصديق والايمان بما قاله الرسول عليه السلام بالمعنى الذي اراده أو في قولنا الثالث انه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعاني أو في قولنا الرابع انه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيما هو وراء طاقته أو في قولنا الخامس انه يجب عليه امساك اللسان عن تغيير الظواهر بالزيادة والنقصان والجمع والتفريق أو في قولنا السادس انه يجب عليه كف القلب عن التذكر فيه والفكر مع عجزه عنه وقد قيل لهم تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق أو في قولنا السابع انه يجب عليه التسليم لاهل المعرفة من الانبياء والاولياء والعلماء الراسخين فهذه امور بيانها برهانها ولا يقدر أحد على جحدها وانكارها ان كان من أهل التمييز فضلا عن العلماء والعقلاء فهذه هي البراهين العقلية (النمط الثاني) البرهان السمعي على ذلك وطريقه أن نقول الدليل على ان الحق مذهب السلف ان نقيضه بدعة والبدعة مذمومة وضلالة والخوض من جهة العوام في التأويل والخوض بهم فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة وكان نقيضه وهو الكف عن ذلك سنة محمودة فههنا ثلاثة اصول (احدها) ان البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الامور بدعة (والثاني) ان كل بدعة فهي مذمومة (والثالث) ان البدعة

اذا

اذا كانت مذمومة كان نقيضها وهي السنة القديمة محمودة ولا يمكن النزاع في شيء من هذه الاصول فاذا سلم ذلك ينتج ان الحق مذهب السلف فان قيل فبم تنكرون على من يمنع كون البدعة مذمومة أو يمنع كون البحث والتفتيش بدعة فينازع في هذين وان لم ينازع في الثالث لظهوره فنقول الدليل على اثبات الاصل الاول من كون البدعة مذمومة اتفاق الامة قاطبة على ذم البدعة وزجر المبتدع وتعيير من يعرف بالبدعة وهذا مفهوم على الضرورة من الشرع وذلك غير واقع في محل الظن فذم رسول الله عليه السلام البدعة علم بالتواتر بمجموع أخبار يفيد العلم القطعي جملتها وان كان الاحتمال يتطرق الى آحادها وذلك كالعلم بشجاعة علي رضي الله عنه وسخاوة حاتم وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وما يجري مجراه فانه علم قطعا باخبار آحاد بلغت في الكثرة مبلغا لا يحتمل كذب ناقليها وان لم تكن آحاد تلك الاخبار متواترة وذلك مثل ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وقال صلى الله عليه وسلم (اتبعوا ولا تبتدعوا وانما هلك من كان قبلكم لما ابتدعوا في دينهم وتركوا سنن انبيائهم وقالوا بآرائهم فضلوا واضلوا) وقال عليه السلام (اذا مات صاحب بدعة فقد فتح على الاسلام فتح) وقال عليه السلام (من مشى الى صاحب بدعة ليوقره فقد اعان على هدم الاسلام وقال عليه السلام

(من أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له في الله ملأ الله قلبه امناً وايماناً ومن انتهر صاحب بدعة رفع الله له مائة درجة ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشر أو استقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل على محمد) صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم (ان الله لا يقبل لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا زكاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا ويخرج من الاسلام كما يخرج السهم من الرمية أو كما تخرج الشعرة من العجين) فهذا وامثاله مما يجاوز حد الحصر افادعلما ضروريا بكون البدعة مذمومة فان قيل سلمنا ان البدعة مذمومة ولكن ما دليل الاصل الثاني وهو ان هذه بدعة فان البدعة عبارة عن كل محدث فلم قال الشافعي رضى الله عنه الجماعة في التراويح بدعة وهي بدعة حسنة وخوض الفقهاء في تفاريع الفقه ومناظرتهم فيها مع ما ابدعوه من نقض وكسر وفساد وضع وتركيب ونحوه من فنون مجادلة والزام كل ذلك مبدع لم يؤثر عن الصحابة شئ من ذلك فدل على ان البدعة المذمومة ما رفعت سنة مأثورة ولا نسلم ان هذا رافع لسنة ثابتة لكنه محدث ما خاض فيه الاولون اما لاشتغالهم بما هو أهم منه واما لسلامة القلوب في العصر الاول عن الشكوك والترددات فاستغنوا لذلك وخاض فيه من بعدهم لمس الحاجة حيث حدثت الاهواء والبدع الى ابطالها وافحام منتحلها (الجواب) أما ما ذكرتموه من أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة قديمة هو الحق وهذه بدعة رفعت سنة قديمة اذ كان سنة الصحابة المنع من الخوض فيه وزجر من سأل عنه والمبالغة في تأديبه ومنعه بفتح باب السؤال عن

هذه

هذه المسائل والخوض بالعوام في غمرة هذه المشكلات على خلاف ما تواتر عنهم وقد صح ذلك عن الصحابة بتواتر النقل عند التابعين من نقلة الآثار وسير السلف حجة لا يتطرق اليها ريب وشك كما تواتر خوضهم في مسائل الفرائض ومشاورتهم في الوقائع الفقهية وحصل العلم به أيضا باخبار آحاد لا يتطرق الشك الى مجموعها كما نقل عن عمر رضي الله عنه انه سأله سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة وكما روي انه سأله سائل عن القرآن أهو مخلوق أم لا فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به الى علي رضي الله عنه فقال يا أبا الحسن اسمع ما يقول هذا الرجل قال وما يقول يا أمير المؤمنين فقال الرجل سألته عن القرآن أمخلوق هو أم لا فوجم لها رضي الله عنه وطأطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لكلام هذا نبأ في آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن أبي هريرة فهذا قول علي بحضور عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف علي رضي الله عنه في نفسه ان هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله تعالى وطلب معرفة لصفة القرآن الذي هو معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل المعرف لاحكام التكليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد فانظر الى فراسة علي واشرافه على ان ذلك قرع لباب الفتنة وان ذلك سينتشر في آخر الزمان الذي هو موسم الفتن ومظنتها بوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانظر الى تشديده وقوله ولو وليت

اضطربت عقله فمثل أولئك السادة الاكابر الذين شاهدوا الوحى والتنزيل واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه وقد قال صلى الله عليه وسلم فى أحدهما (لو لم أبعث لبعث عمر) وقال فى الثانى (أنا مدينة العلم وعلى بابها) يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة ومن لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ان الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض فى الجواب وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه أنه محق وفى عمر وعلى أنهما مبطلان هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ورجح المجادلين على الائمة الراشدين والسلف فاذا قد عرف على القطع ان هذه بدعة مخالفة لسنة السلف لا كخوض الفقهاء فى التفاريع والتفاصيل فانه ما نقل عنهم زجر عن الخوض فيه بل امعانهم فى الخوض وأما ما أبدع من فنون المجادلات فهى بدعة مذمومة عند أهل التحصيل ذكرنا وجه ذمها فى كتاب قواعد العقائد من كتب الاحياء وأما مناظراتهم ان كان القصد منها التعاون على البحث عن مأخذ الشرع ومدارك الاحكام فهى سنة السلف ولقد كانوا يتشاورون ويتناظرون فى المسائل الفقهية كما نقل فى مسألة الجد وميراث الام مع الزوج والاب ومسائل سواها فانهم ان أبدعوا ألفاظا وعبارات للتنبيه على مقاصدهم الصحيحة فلا حرج فى العبارات بل هى مباحة لمن يستعيرها او يستعملها وان كان مقصدهم المذموم من النظر الافحام دون الاعلام والالزام دون الاستعلام فذلك بدعة على خلاف السنة المأثورة

﴿ الباب

﴿الباب الثالث في فصول متفرقة وأبواب نافعة في هذا الفن﴾

(فصل) ان قال قائل ما الذى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اطلاق هذه الالفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها أكان لا يدرى انه يوهم التشبيه و يغلط الخلق و يسوقهم الى اعتقاد الباطل في ذات الله تعالى وصفاته وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال وضلالة الضلال وهذا أبعد وأشنع لانه بعث شارحا لا مبهما ملبسا ملغزا وهذا اشكال له وقع في القلوب حتى جر بعض الخلق الى سوء الاعتقاد فيه فقالوا لو كان نبيا لعرف الله ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه في ذاته وصفاته ومالت طائفة أخرى الى اعتقاد الظواهر وقالوا لو لم يكن حقا لما ذكره كذلك مطلقا ولعدل عنها الى غيرها او قرنها بما يزيل الايهام عنها فما سبيل حل هذا الاشكال العظيم (الجواب) ان هذا الاشكال منحل عند اهل البصيرة وبيانه ان هذه الكلمات ما جمعها رسول الله دفعة واحدة وما ذكرها وانما جمعها المشبهة وقد بينا ان لجمعها من التأثير في الايهام والتلبيس على الافهام ما ليس لآحادها المفرقة وانما هي كلمات لهج بها في جميع عمره في أوقات متباعدة واذا اقتصر منها على ما في القرآن والاخبار المتواترة رجعت الى كلمات يسيرة معدودة وان أضيفت اليها الاخبار الصحيحة فهي ايضا قليلة وانما كثرت الروايات الشاذة الضعيفة التي لا يجوز التعويل عليها ثم ما تواتر منها ان صح نقلها عن العدول فهي آحاد كلمات وما ذكره صلى الله عليه وسلم كلمة منها الا مع قرائن واشارات يزول معها ايهام التشبيه وقد ادركها

الحاضرون المشاهدون فاذا نقل الالفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الايهام وأعظم القرائن في زوال الايهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة في نفسه مقارنة لكل ما يسمع فينمحق معه الايهام انمحاقا لا يشك فيه ويعرف هذا بامثلة (الاول) انه صلى الله عليه وسلم سمى الكعبة بيت الله تعالى واطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند من تقرب درجتهم منهم ان الكعبة وطنه ومثواه لكن العوام الذين اعتقدوا انه في السماء وان استقراره على العرش ينمحق في حقهم هذا الايهام على وجه لا يشكون فيه فلو قيل لهم ما الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل الى السامع ان الكعبة مسكنه لبادروا باجمعهم وقالوا هذا انما يوهم في حق الصبيان والحمقى أما من تكرر على سمعه ان الله مستقر على عرشه فلا يشك عند سماع هذا اللفظ انه ليس المراد به ان البيت مسكنه ومأواه بل يعلم على البديهة ان المراد بهذه الاضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ البيت المضاف الى ربه وساكنه أليس كان اعتقاده انه على العرش قرينة أفادته علما قطعيا بانه ما اريد بكون الكعبة بيته انه مأواه وان هذا انما يوهم في حق من لم يسبق الى هذه العقيدة فكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب بهذه الالفاظ جماعة سبقوا الى علم التقديس ونفي التشبيه وانه منزه عن الجسمية وعوارضها وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للايهام لا يبقى معه شك وان جاز أن يبقى لبعضهم تردد في تأويله وتعيين المراد به من جملة

ما

ما يحتمله اللفظ و يليق بجلال الله تعالى (مثال الثاني) اذا جرى لفقيه في كلامه لفظ الصورة بين يدي الصبي أو العامي فقال الصورة هذه المسألة كذا وصورة الواقعة كذا ولقد صورت للمسألة صورة في غاية الحسن ربما توهم الصبي أو العامي الذي لا يفهم معنى المسألة ان المسألة شيء له صورة وفي تلك الصورة انف وفم وعين على ما عرفه واشتهر عنده أما من عرف حقيقة المسألة وانها عبارة عن علوم مرتبة ترتيبا مخصوصا فهل يتصور ان يفهم عينا وانفا وفما كصورة الاجسام هيهات بل يكفيه معرفته بأن المسألة منزهة عن الجسمية وعوارضها فكذلك معرفة نفي الجسمية عن الاله وتقدسه عنها تكون قرينة في قلب كل مستمع مفهمة لمعنى الصورة في قوله خلق الله آدم على صورته و يتعجب العارف بتقديسه عن الجسمية ممن يتوهم لله تعالى الصورة الجسمية كما يتعجب ممن يتوهم للمسألة صورة جسمانية (مثال الثالث) اذا قال القائل بين يدي الصبي بغداد في يد الخليفة ربما يتوهم ان بغداد بين أصابعه وانه قد احتوى عليها براحته كما يحتوي على خبزه ومدره وكذلك كل عامي لم يفهم المراد بلفظ بغداد أما من علم ان بغداد عبارة عن بلدة كبيرة هل يتصور ان يخطر له ذلك أو يتوهم وهل يتصور ان يعترض على قائله و يقول له لماذا قلت بغداد في يد الخليفة وهذا يوهم خلاف الحق و يفضي الى الجهل حتى يعتقد ان بغداد بين أصابعه بل يقال له يا سليم القلب هذا انما يوهم الجهل عند من لا يعرف حقيقة بغداد أما من علمه فبالضرورة يعلم انه ما اريد بهذه اليد العضو المشتمل على الكف والاصابع بل معنى آخر ولا

يحتاج في فهمه الى قرينة سوى هذه المعرفة فكذلك جميع الالفاظ الموهمة في الاخبار يكفي في دفع ايهامها قرينة واحدة وهي معرفة الله وانه ليس بجسم وليس من جنس الاجسام وهذا مما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانه في اول بعثته قبل النطق بهذه الالفاظ

(مثال الرابع) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسائه (اطولكن يدا اسرعكن لحاقا بي) فكان بعض نسوته يتعرف الطول بالمساحة ووضع اليد على اليد حتى ذكر لهن انه اراد بذلك السماحة في الجود دون الطول للعضو وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذه اللفظة مع قرينة افهم بها ارادة الجود بالتعبير بطول اليد عنه فلما نقل اللفظ مجردا عن قرينته حصل الايهام فهل كان لاحد ان يعترض على رسول صلى الله عليه وسلم في اطلاقه لفظا جهل بعضهم معناه اعاذ لك لانه اطلق اطلاقا مفهما في حق الحاضرين مقرونا مثلا بذكر السخاوة والناقل قد ينقل اللفظ كما سمعه ولا ينقل القرينة او كان بحيث لا يمكن نقلها او ظن انه لا حاجة الى نقلها وان من يسمع يفهمه كما فهمه هو لما سمعه فربما لا يشعر ان فهمه انما كان بسبب القرينة فلذلك يقتصر على نقل اللفظ فبمثل هذه الاسباب بقيت الالفاظ مجردة عن قرائنها فقصرت عن التفهيم مع ان قرينة معرفة التقديس بمجردها كافية في نفي الايهام وان كانت ربما لا تكفي في تعيين المراد به فهذه الدقائق لابد من التنبه لها

(مثال الخامس) اذا قال القائل بين يدي الصبي ومن يقرب منه درجته ممن لم يمارس الاحوال ولا عرف العادات في المجالسات فلان دخل مجمعا وجلس فوق فلان ربما يتوهم السامع

الجاهل

الجاهل الغبي انه جالس على رأسه أو على مكان فوق رأسه ومن عرف العادات وعلم ان ماهو أقرب الى الصدر أعلى في الرتبة وان الفوق عبارة عن العلو يفهم منه انه جالس بجنبه لا فوق رأسه لكن جالس أقرب الى الصدر فالاعتراض على من خاطب بهذا الكلام أهل المعرفة بالعادات من حيث انه يجهل الصبيان أو الاغبياء اعتراض باطل لا أصل له وأمثلة ذلك كثيرة فقد فهمت على القطع بهذه الامثلة ان هذه الالفاظ الصريحة انقلبت مفهوماتها عن أوضاعها الصريحة بمجرد قرينة ورجعت تلك القرائن الى معارف سابقة ومقترنة فكذلك هذه الظواهر الموهمة انقلبت عن الايهام بسبب تلك القرائن الكثيرة التي بعضها هي المعارف والواحدة منها معرفتهم انهم لم يؤمروا بعبادة الاصنام وان من عبد جسما فقد عبد صنما كان الجسم صغيرا او كبيرا قبيحا أو جميلا سافلا أو عاليا على الارض أو على العرش وكان نفي الجسمية ونفي لوازمها معلوما لكافتهم على القطع باعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المبالغة في التنزيه بقوله ليس كمثله شيء وسورة الاخلاص وقوله (ولا تجعلوا لله أندادا) وبالفاظ كثيرة لا حصر لها مع قرائن قاطعة لا يمكن حكايتها وعلم ذلك علما لا ريب فيه وكان ذلك كافيا في تعريفهم استحالة يد هي عضو مركب من لحم وعظم وكذا في سائر الظواهر لانها لا تدل الا على الجسمية وعوارضها والاطلاق على جسم واذا أطلق على غير الجسم علم ضرورة انه ما أريد به ظاهره بل معنى آخر مما يجوز على الله تعالى وربما يتعين ذلك المعنى وربما لا يتعين فهذا مما يزيل الاشكال فان قيل فلم لم يذكرها بالفاظ ناصة عليها

بحيث لا يوهم ظاهرها جهلا ولا في حق العامي والصبي قلنا لانه انما
كلم الناس بلغة العرب وليس في لغة العرب الفاظ ناصة على تلك
المعاني فكيف يكون في اللغة لها نصوص وواضع اللغة لم يفهم تلك
المعاني فكيف وضع لها النصوص بل هي معان ادركت بنور النبوة
خاصة أو بنور العقل بعد طول البحث وذلك أيضا في بعض تلك الامور
لا في كلها فلما لم يكن لها عبارات موضوعة كان استعارة الالفاظ من
موضوعات اللغة ضرورة كل ناطق بتلك اللغة كما انا لا نستغني عن ان
نقول صورة هذه المسألة كذا وهي تخالف صورة المسألة الاخرى
وهي مستعارة من الصورة الجسمانية لكن واضع اللغة لما لم يضع
لهيئة المسألة وخصوص ترتيبها اسما نصا اما لانه لم يفهم المسألة
أو فهم لكن لم تحضره أو حضرته لكن لم يضع لها نصا خاصا اعتمادا
على امكان الاستعارة او لانه علم انه عاجز عن ان يضع لكل معنى لفظا
خاصا نصا لان المعاني غير متناهية العدد والموضوعات بالقطع يجب ان
تتناهى فتبقى معاني لا نهاية لها يجب ان يستعار اسمها من الموضع
فاكتفى بوضع البعض وسائر اللغات أشد قصورا من لغة العرب فهذا
وامثاله من الضرورة يدعو الى الاستعارة لمن يتكلم بلغة قوم اذ
لا يمكنه أن يخرج عن لغتهم كيف ونحن نجوز الاستعارة حيث
لا ضرورة اعتمادا على القرائن فانا لا نفرق بين ان يقول القائل
جلس زيد فوق عمرو وبين ان يقول جلس أقرب منه الى الصدر وان
بغداد في ولاية الخليفة أو في يده اذا كان الكلام مع العقلاء وليس في
الامكان حفظ الالفاظ عن افهام الصبيان والجهال فالاشتغال

بالاحتراز

بالاحتراز عن ذلك ركاكة في الكلام وسخافة في العقل وثقل في اللفظ
فان قيل فلم لم يكشف الغطاء عن المراد باطلاق لفظ الاله ولم يقل انه
موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا هو داخل العالم ولا خارجه
ولا متصل ولا منفصل ولا هو في مكان ولا هو في جهة بل الجهات كلها
خالية عنه فهذا هو الحق عند قوم والافصاح عنه كذلك كما أفصح عنه
المتكلمون ممكن ولم يكن في عبارته صلى الله عليه وسلم قصور ولا في
رغبته في كشفه الحق فتور ولا في معرفته نقصان قلنا من رأى هذا حقيقة
الحق اعتذر بان هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله ولبادروا بالانكار
وقالوا هذا عين المحال ووقعوا في التعطيل ولا خير في المبالغة في تنزيه
ينتج التعطيل في حق الكافة الا الاقلين وقد بعث رسول الله صلى الله
عليه وسلم داعيا للخلق الى سعادة الآخرة رحمة للعالمين كيف ينطق بما
فيه هلاك الاكثرين بل أمران لا يكلم الناس الا على قدر عقولهم
وقال صلى الله عليه وسلم (من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان
فتنة على بعضهم) أو لفظ هذا معناه فان قيل ان كان في المبالغة في
التنزيه خوف التعطيل بالاضافة الى البعض ففي استعماله الالفاظ
الموهمة خوف التشبيه بالاضافة الى البعض قلنا بينهما فرق من
وجهين أحدهما ان ذلك يدعو الى التعطيل في حق الاكثرين وهذا يدعو
الى التشبيه في حق الاقلين وأهون الضررين أولى بالاحتمال وأعم
الضررين اولى بالاجتناب والثاني ان علاج وهم التشبيه أسهل من
علاج التعطيل اذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر (ليس كمثله شئ)
وانه ليس بجسم ولا مثل الاجسام وأما اثبات موجود في الاعتقاد على

ما ذكرناه من المبالغة في التنزيه شديد جدا بل لا يقبله واحد من
الالف لا سيما الامة الامية العربية فان قيل فعجز الناس عن الفهم
هل يعهد عذر الانبياء في ان يتركوا في عقائدهم امورا على خلاف
ما هي عليه ليثبت في اعتقادهم اصل الالهية حتى توهموا واعتقدهم
مثلا ان الله مستقر على العرش وانه في السماء وانه فوقهم فوقية
المكان قلنا معاذ الله ان نظن ذلك او يتوهم بنبي صادق ان يصف
الله بغير ما هو متصف به وان يلقي ذلك في اعتقاد الخلق فانما اثر
قصور الخلق في ان يذكر لهم ما يطيقون فهمه وما لا يفهمونه فيكف
عنه فلا يفرقهم بل يمسك عنهم وانما ينطق به مع من يطيقه ويفهمه
ويحسن في ذلك علاج عجز الخلق وقصورهم ولا ضرورة في تفهيمهم
خلاف الحق قصدا الا سيما في صفات الله نعم به ضرورة في استعمال
الالفاظ مستعارة ربما يغلط الاغبياء في فهمها وذلك لقصور اللغات
وضرورة المحاورات فأما تفهيمهم خلاف الحق قصدا الى التجهيل
فمحال سواء فرض فيه مصلحة أو لم تفرض فان قيل قد جهل أهل
التشبيه جهلا استندا الى الفاظه وعلم ان الفاظه في الظواهر تفضي الى
جهلهم فهما جاء به فقد جهل ما لبس فرضي به لم يفرق الحال بين ان
يكون مجردا قصده الى التجهيل وبين أن لا يقصد التجهيل مهما
حصل التجهيل وهو عالم به وراض قلنا لا نسلم ان جهل أهل التشبيه
حصل بالفاظه بل بتقصيرهم في كسب معرفة التقديس وتقديمه على
النظر في الالفاظ ولو حصلوا تلك المعرفة أولا وقدموها لما جهلوها كما
ان من حصل علم التقديس لم يجهل عند سماعه صورة المسألة
وانما

وانما الواجب عليهم تحصيل هذا العلم ثم مراجعة العلماء اذا اشكلوا في ذلك ثم كف النفس عن التأويل والزامها التقديس اذا رسم لهم العلماء فاذا لم يفعلوا وجهلوا وعلم الشارع بان الناس في طباعهم الكسل والتقصير والفضول بالخوض فيما ليس من شأنهم ليس رضاه بذلك ولا سعيا في تحصيل الجهل لكنه رضاء بقضاء الله وقدره في قسمته حيث قال (وتمت كلمة ربك لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة * ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين * وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله * ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فهذا هو القهر الالهي في فطرة الخلق ولا قدرة للانبياء في تغيير سنته التي لا تبديل لها ﴿فصل﴾ لعلك تقول الكف عن السؤال والامساك عن الجواب من أين يغني وقد شاع في البلاد هذه الاختلافات وظهرت التعصبات فكيف سبيل الجواب اذا سئل عن هذه المسائل (قلنا) الجواب ما قاله مالك رضي الله عنه في الاستواء اذ قال الاستواء معلوم الحديث فيذكر هذا الجواب في كل مسألة سئل عنها العوام لينحسم سبيل الفتنة فان قيل فاذا سئل عن الفوق واليد والاصبع فبم يجيب (قلنا) الجواب أن يقال الحق فيه ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وقاله الله تعالى وقد صدق حيث قال (الرحمن على العرش استوى) فيعلم قطعا انه ما اراد الجلوس والاستقرار الذي هو صفة الاجسام ولا ندري ما الذي اراده ولم نكلف معرفته وصدق حيث قال (وهو القاهر فوق عباده) وفوقية المكان محال

فانه كان قبل المكان فهو الآن كما كان وما اراده فانا نعرفه وليس علينا ولا عليك أيها السائل معرفته فكذلك نقول لا يجوز اثبات اليد والاصبع مطلقا بل يجوز النطق بما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي نطق به من غير زيادة ونقصان وجمع وتفريق وتأويل وتفصيل كما سبق فنقول صدق حيث قال (خمرطينة آدم بيده) وحيث قال (قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن) فنؤمن بذلك ولا نزيد ولا ننقص وننقله كما روى ونقطع بنفي العضو المركب من اللحم والعصب واذا قيل القرآن قديم او مخلوق قلنا هو غير مخلوق لقوله صلى الله عليه وسلم (القرآن كلام الله غير مخلوق) فان قال الحروف قديمة ام لا فانا الجواب في هذه المسئلة لم يذكرها الصحابة فالخوض فيها بدعة فلا تسألوا عنها فان ابتلى الانسان بهم في بلدة غلبت فيها الحشوية وكفروا من لا يقول بقدم الحروف فيقول المضطر الى الجواب ان عنيت بالحروف نفس القرآن فالقرآن قديم وان اردت بها غير القرآن وصفات الله تعالى فما سوى الله وصفاته محدث ولا يزيد عليه لان تفهيم العوام حقيقة هذه المسئلة عسير جدا فان قالوا قد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قرأ حرفا من القرآن فله كذا) فاثبت الحروف للقرآن ووصف القرآن بانه غير مخلوق فلزم منه ان الحروف قديمة قلنا لا نزيد على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ان القرآن غير مخلوق وهذه مسألة وان كان للقرآن حروف هي مسئلة أخرى واما ان الحروف قديمة فهي مسألة ثالثة ولم نرد عليه فلا نقول به ولا نزيد على

ما

ماقاله الرسول صلى الله عليه وسلم فان زعموا انه يلزم من المسألتين السابقتين هذه المسألة قلنا هذا قياس وتفريع وقد بينا أن لاسبيل الى القياس والتفريع بل يجب الاقتصار على ماورد من غير تفريق وكذلك اذا قالوا عربية القرآن قديمة لانه قال القرآن قديم وقال (انزلناه قرآنا عربيا) فالعربي قديم فنقول اما ان القرآن عربي فحق اذ نطق به القرآن واما ان القرآن قديم فحق اذ نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم واما ان عربية القرآن قديمة فهي مسألة ثالثة لم يرد فيها انها قديمة فلا يلزم القول بها فعلى هذا الوجه يلجم العوام والحشوية عن التصرف فيه ونزمهم عن القياس والقول باللوازم بل نزيد في التضييق على هذا ونقول اذا قال القرآن كلام الله غير مخلوق فهذا لا يرخص في ان يقول القرآن قديم مالم يرد لفظ القديم اذ فرق بين غير المخلوق والقديم اذ يقال كلام فلان غير مخلوق أي غير موضوع وقد يقال المخلوق بمعنى المختلق فلفظ غير مخلوق يتطرق اليه هذا ولا يتطرق الى لفظ القديم فبينهما فرق ونحن نعتقد قدم القرآن لا بمجرد هذا اللفظ فان هذا اللفظ لا ينبغي ان يحرف ويبدل ويغير ويصرف بل يلزم ان نعتقد انه حق بالمعنى الذي اراده وكل من وصف القرآن بانه مخلوق من غير نقل نص فيه مقصود فقد ابدع وزاد ومال عن مذهب السلف وحاد ﴿فصل﴾ فان قيل من المسائل المعروفة قولهم ان الايمان قديم فاذا سئلنا عنه فبم نجيب قلنا ان ملكنا زمام الامر واستولينا على السائل منعناه من هذا الكلام السخيف الذي لا جدوى له وقلنا ان هذا بدعة وان

كنا مغلوبين في بلادهم فنجيب ونقول ما الذي اردت بالايمان ان اردت
شيأ من معارف الخلق وصفاتهم فجميع صفات الخلق مخلوقة وان
اردت به شيأ من القرآن أو من صفات الله تعالى فجميع صفات الله
تعالى قديمة وان اردت ما ليس صفة للخلق ولا صفة الخالق فهو غير
مفهوم ولا متصور وما لا يفهم ولا يتصور ذاته كيف يفهم حكمه في القدم
والحدوث والاصل زجر السائل والسكوت عن الجواب هذا هو
مقصود مذهب السلف ولا عدول عنه الا بضرورة وسبيل المضطر
ما ذكرنا فان وجدنا ذكيا مستفهما لفهم الحقائق كشفنا الغطاء عن
المسألة وخلصناه عن الاشكال في القرآن وقلنا (اعلم) ان كل شيء فله
في الوجود اربع مراتب وجود في الاعيان ووجود في الاذهان ووجود في
اللسان ووجود في البياض المكتوب عليه كالنار مثلا فان لها وجودا في
التنور ووجودا في الخيال والذهن واعني بهذا الوجود العلم بنفس النار
وحقيقتها ولها وجود في اللسان وهي الكلمة الدالة عليه أعني لفظ النار
ولها وجود في البياض المكتوب عليه بالرقوم والاحراق صفة خاصة
للنار كالقدم للقرآن وكلام الله تعالى والمحرق من هذه الجملة الذي
في التنور دون الذي في الاذهان وفي اللسان وعلى البياض اذ لو كان
المحرق في البياض أو اللسان لاحترق ولكن لو قيل لنا النار محرقة
قلنا نعم فان قيل لنا كلمة النار محرقة قلنا لا فان قيل حروف النار
محرقة قلنا لا فان قيل مرقوم هذه الحروف على البياض محرقة
قلنا لا فان قيل المذكور بكلمة النار والمكتوب بكلمة النار
محرق قلنا نعم لان المذكور والمكتوب بهذه الكلمة ما في التنور

وما

وما في التنور محرق فكذلك القدم وصف كلام الله تعالى كالاحراق
وصف النار وما يطلق عليه اسم القرآن وجوده على اربع
مراتب أولها وهي الاصل وجوده قائما بذات الله تعالى يضاهي وجود
النار في التنور (ولله المثل الاعلى) ولكن لابد من هذه الامثلة في
تفهيم العجزة والقدم وصف خاص لهذا الوجود والثانية وجوده
العلمي في اذهاننا عند التعلم قبل ان ننطق بلساننا ثم وجوده في لساننا
بتقطيع اصواتنا ثم وجوده في الاوراق بالكتب فاذا سئلنا عما في
اذهاننا من علم القرآن قبل النطق به قلنا علمنا صفتنا وهي مخلوقة
لكن المعلوم به قديم كما ان علمنا بالنار وثبوت صورتها في خيالنا غير
محرق لكن المعلوم به محرق وان سئلنا عن صوتنا وحركة لساننا
ونطقنا قلنا ذلك صفة لساننا ولساننا حادث وصفته توجد بعده وما هو
بعد الحادث حادث بالقطع لكن منطوقنا ومذكورنا ومقروءنا ومتلونا
بهذه الاصوات الحادثة قديم كما ان ذكرنا حروف النار بلساننا كان
المذكور بهذه الحروف محرقا واصواتنا وتقطيع اصواتنا غير محرق
الا ان يقول قائل حروف النار عبارة عن نفس النار قلنا ان كان كذلك
فحروف النار محرقة وحروف القرآن ان كان عبارة عن نفس المقروء
فهي قديمة وكذلك الخطوط برقوم النار والمكتوب به محرق لان
المكتوب هو نفس النار أما الرقم الذي هو صورة النار غير محرق
فانه في الاوراق من غير احراق واحتراق فهذه اربع درجات في
الوجود تشتبه على العوام ولا يمكنهم ادراك تفاصيلها وخاصية كل
واحدة منها فلذلك لانخوض بهم فيه الا اجمالا بحقيقة هذه الامور

وكذا تفاصيلها أن النار من حيث أنها في التنور توصف بأنها محرقة
وخامدة ومشتعلة ومن حيث أنها في اللسان توصف بأنه عجمي وتركي
وعربي وكثير الحروف وقليله وما في التنور لا ينقسم إلى العجمي
والتركي والعربي وما في اللسان لا يوصف بالخمود والاشتعال وإذا كان
مكتوبا على البياض يوصف بأنه أحمر وأخضر وأسود وأنه بقلم
المحقق أو الثلث والرقاع أو قلم النسخ وهو في اللسان لا يمكن أن يوصف
بذلك واسم النار يطلق على ما في التنور وما في القلب وما في اللسان
وما على القرطاس لكن باشتراك الاسم فأطلق على ما في التنور
حقيقة وعلى ما في الذهن من العلم لا بالحقيقة لكن بمعنى أنه صورة
محاكية للنار الحقيقي كما أن ما يرى في المرآة يسمى إنسانا ونارا
لا بالحقيقة ولكن بمعنى أنها صورة محاكية للنار الحقيقي والانسان
وما في اللسان من الكلمة يسمى باسمه بمعنى ثالث وهو أنه دلالة دالة
على ما في الذهن وهذا يختلف بالاصطلاحات والأول والثاني
لا اختلاف فيهما وما في القرطاس يسمى نارا بمعنى رابع وهو أنها رقوم
تدل بالاصطلاح على ما في اللسان وهو مفهوم اشتراك اسم القرآن
والنار وكل شيء من هذه الأمور الأربعة فإذا ورد في الخبر أن القرآن
في قلب العبد وأنه في المصحف وأنه في لسان القارئ وأنه صفة ذات الله
صدق بالجميع وفهم معنى الجميع ولا يتناقض عند الأذكياء وصدق
بالجميع مع الإحاطة بحقيقة المراد وهذه أمور جلية دقيقة لا أجلى
منها عند الفطن الذكي ولا أدق وأغمض منها عند البليد الغبي فحق
البليد أن يمنع من الخوض فيها ويقال له قل القرآن غير مخلوق
واسكت

واسكت ولا تزد عليه ولا تنقص ولا تفتش عنه ولا تبحث وأما الذكي فيزوح عن فهمه هذا الاشكال في لحظة ويوصى بان لا يحدث العامي به حتى لا يكلفه ماليس في طاقته وهكذا جميع موضع الاشكالات في الظواهر فيها احتمالات جلية لارباب البصائر ملتبسة على العميان من العوام فلا ينبغي أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة وان لم يحرروا الفاظها تحرير صنعة ولكنهم عرفوه وعرفوا عجز العوام فسكتوا عنهم وأسكتوهم وذلك عين الحق والصواب ولا أعني بأكابر السلف الاكابر من حيث الجاه والاشتهار ولكن من حيث الغوص على المعاني والاطلاع على الاسرار وعند هذا ربما انقلب الامر في حق العوام واعتقدوا في الاشهر أنه الاكبر وذلك سبب آخر من أسباب الضلال ﴿فصل﴾ فان قال قائل العامي اذا منع من البحث والنظر لم يعرف الدليل ومن لم يعرف الدليل كان جاهلا بالمدلول وقد أمر الله تعالى كافة عباده بمعرفته أي بالايمان به والتصديق بوجوده أولا وبتقديسه عن سمات الحوادث ومشابهة غيره ثانيا وبوحدانيته ثالثا وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعا وهذه الامور ليست ضرورية فهي اذا مطلوبة وكل علم مطلوب فلا سبيل الى اقتناصه وتحصيله الا بشبكة الادلة والنظر في الادلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب وكيفية انتاجها وذلك لا يتم الا بمعرفة شروط البراهين وكيفية ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج ويجر ذلك شيأ فشيأ الى تمام علم البحث واستيفاء علم الكلام الى آخر النظر في المعقولات وكذلك يجب على

العامى أن يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به وصدقه ليس بضرورى بل هو بشر كسائر الخلق فلابد من دليل يميزه عن غيره ممن تحدى بالنبوة كاذبا ولا يمكن ذلك الا بالنظر فى المعجزة ومعرفة حقيقة المعجزة وشروطها الى آخر النظر فى النبوات وهو لب علم الكلام (قلنا) الواجب على الخلق الايمان بهذه الامور والايمان عبارة عن تصديق جازم لاتردد فيه ولا يشعر صاحبه بامكان وقوع الخطأ فيه وهذا التصديق الجازم يحصل على ست مراتب (الاولى) وهى أقصاها ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفى شروطه المحرر أصوله ومقدماته درجة درجة وكلمة كلمة حتى لا يبقى مجال احتمال وتمكن التباس وذلك هو الغاية القصوى وربما يتفق ذلك فى كل عصر لواحد أو اثنين ممن ينتهى الى تلك الرتبة وقد يخلو العصر عنه ولو كانت النجاة مقصورة على مثل تلك المعرفة لقلت النجاة وقل الناجون (الثانية) أن يحصل بالادلة الوهمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة انكارها ونفرة النفوس عن ابداء المراء فيها وهذا الجنس أيضا يفيد فى بعض الامور وفى حق بعض الناس تصديقا جازما بحيث لا يشعر صاحبه بامكان خلافه أصلا (الثالثة) أن يحصل التصديق بالادلة الخطابية أعنى القدرة التى جرت العادة باستعمالها فى المحاورات والمخاطبات الجارية فى العادات وذلك يفيد فى حق الاكثرين تصديقا بادى الرأى وسابق الفهم ان لم يكن الباطن مشحونا بالتعصب وبرسوخ اعتقاد على خلاف مقتضى الدليل ولم يكن المستمع مشغوفا بتكلف المماراة والتشكك

والتشكيكات ومنتجا لتصديق المجادلين فى المستقبل وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس فمن الدليل الظاهر المفيد للتصديق قولهم لا ينتظم تدبير المنزل بمدبرين فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكل قلب باق على الفطرة غير مشوش بمماراة المجادلين يسبق من هذا الدليل الى فهمه تصديق جازم بوحدانية الخالق لكن لو شوشه مجادل وقال لم يبعد أن يكون العالم بين الهين يتوافقان على التدبير ولا يختلفان فاسماعه هذا القدر يشوش عليه تصديقه ثم ربما يعسر حل هذا السؤال ودفعه فى حق بعض الافهام القاصرة فيستولى الشك ويتعذر الرفع وكذلك من الجلى ان من قدر على الخلق فهو على الاعادة أقدر كما قال (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فهذا لا يسمعه أحد من العوام ذكى أوغبى الا ويبادر الى التصديق ويقول نعم ليست الاعادة بأعسر من الابتداء بل هى أهون ويمكن أن يشوش عليه بسؤال ربما يعسر عليه فهم جوابه والدليل المستوفى هو الذى يفيد التصديق بعد تمام الاسئلة وجوابها بحيث لا يبقى للسؤال مجال والتصديق يحصل قبل ذلك (الرابعة) التصديق بمجرد السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه فان من حسن اعتقاده فى أبيه وأستاذه أو فى رجل من الافاضل المشهورين فسمعه يخبره عن شئ كموت شخص أو قدوم غائب أو غيره فيسبق اليه اعتقاد جازم وتصديق بما أخبر عنه بحيث لا يبقى لغيره مجال فى قلبه ومستنده حسن اعتقاده فيه فالمجرب بالصدق والورع والتقوى مثل الصديق رضى الله عنه اذا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا

فكم من مصدق به جزما قابل له قبولا مطلقا لامستند لقوله الاحسن
اعتقاده فيه مثاله اذا لقن العامي اعتقادا وقال له اعلم ان خالق العالم
واحد وانه عالم قادر وانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا بادر الى
التصديق ولم يمازجه ريب ولاشك في قوله وكذلك اعتقاد الصبيان
في آبائهم ومعلميهم فلا جرم يسمعون الاعتقادات ويصدقون بها
ويستمرون عليها من غير حاجة الى دليل وحجة (الرتبة الخامسة)
التصديق به الذي يسبق اليه القلب عند سماع الشيء مع قرائن
أحوال لاتفيد القطع عند المحقق ولكن يلقي في قلب العوام اعتقادا
جازما كما اذا سمع بالتواتر مرض رئيس البلد ثم ارتفع صراخ وعويل
من داره ثم يسمع من احد غلمانه انه قد مات اعتقد العامي جزما انه
مات وبنى عليه تدبيره ولا يخطر بباله ان الغلام ربما قال ذلك عن
ارجاف سمعه وان الصراخ والعويل لعله عن غشية أو شدة مرض
أو سبب آخر لكن هذه خواطر بعيدة لا تخطر للعوام فتنطبع في
قلوبهم الاعتقادات الجازمة وكم من اعرابي نظر الى أسارير وجه رسول
الله صلى الله عليه وسلم والى حسن كلامه ولطف شمائله واخلاقه
فآمن به وصدقه جزما لم يخالجه ريب من غير ان يطالبه بمعجزة يقيمها
ويذكر وجه دلالتها (الرتبة السادسة) ان يسمع القول فيناسب
طبعه واخلاقه فيبادر الى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن
اعتقاد في قائله ولا من قرينة تشهد له لكن لمناسبته لما في طباعه
فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله يصدق بجميع ذلك بادنى ارجاف
ويستمر على اعتقاده جازما ولو اخبر بذلك في حق صديقه او بشيء

يخالف

يخالف شهوته وهواه توقف فيه أو اباه كل الاباء وهذه أضعف
التصديقات وأدنى الدرجات لان ما قبله استند الى دليل ما وان كان
ضعيفا من قرينة أو حسن اعتقاد فى المخبر أو نوع من ذلك وهى
أمارات يظنها العامى أدلة فتعمل فى حقه عمل الادلة فاذا عرفت مراتب
التصديق فاعلم ان مستند ايمان العوام هذه الاسباب وأعلى
الدرجات فى حقهم ادلة القرآن وما يجرى مجراه مما يحرك القلب الى
التصديق ولا ينبغى أن يجاوز بالعامى الى ما وراء أدلة القرآن وما فى
معناه من الجليات المسكنة للقلوب المستجرة لها الى الطمأنينة
والتصديق وما وراء ذلك ليس على قدر طاقته واكثر الناس آمنوا
فى الصبا وكان سبب تصديقهم مجرد التقليد للآباء والمعلمين لحسن
ظنهم بهم وكثرة ثنائهم على أنفسهم وثناء غيرهم عليهم وتشديدهم
النكير بين أيديهم على مخالفيهم وحكايات انواع النكال النازل
بمن لا يعتقد اعتقادهم وقولهم ان فلانا اليهودى فى قبره مسخ كلبا
وفلان الرافضى انقلب خنزيرا وحكايات منامات واحوال من هذا
الجنس تنغرس فى نفوس الصبيان النفرة عنه والميل الى ضده حتى
ينزع الشك بالكلية عن قلبه فالتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ثم
يقع نشوؤه عليه ولا يزال يؤكد ذلك فى نفسه فاذا بلغ استمر على اعتقاده
الجازم وتصديقه المحكم الذى لا يخالجه فيه ريب ولذلك ترى أولاد
النصارى والروافض والمجوس والمسلمين كلهم لا يبلغون الا على
عقائد آبائهم واعتقاداتهم فى الباطل والحق جازمة لوقطعوا اربا اربا
لما رجعوا عنها وهم قط لم يسمعوا عليه دليلا لا حقيقيا ولا رسميا وكذا

ترى العبيد والاماء يسبون من المشرك ولا يعرفون الاسلام فاذا وقعوا
فى اسر المسلمين وصحبوهم مدة ورأوا ميلهم الى الاسلام مالوا معهم
واعتقدوا اعتقادهم وتخلقوا باخلاقهم كل ذلك لمجرد التقليد والتشبه
بالتابعين والطباع مجبولة على التشبه لاسيما طباع الصبيان وأهل
الشباب فبهذا يعرف ان التصديق الجازم غير موقوف على البحث
وتحرير الأدلة ﴿فصل﴾ لعلك تقول لا أنكر حصول التصديق الجازم
فى قلوب العوام بهذه الاسباب ولكن ليس ذلك من المعرفة فى شئ وقد
كلف الناس المعرفة الحقيقية دون اعتقاد هو من جنس الجهل الذى
لا يتميز فيه الباطل عن الحق فالجواب ان هذا غلط من ذهب اليه بل
سعادة الخلق فى ان يعتقدوا الشئ على ما هو عليه اعتقادا جازما لتنتقش
قلوبهم بالصورة الموافقة لحقيقة الحق حتى اذا ماتوا وانكشف لهم
الغطاء فشاهدوا الامور على ما اعتقدوها لم يفتضحوا ولم يحترقوا بنار
الخزى والخجلة ولا بنار جهنم ثانيا وصورة الحق اذا انتقش بها قلبه فلا
نظر الى السبب المفيد له أهو دليل حقيقى أو رسمى أو اقناعى أو قبول
بحسن الاعتقاد فى قائله أو قبول لمجرد التقليد من غير سبب فليس
المطلوب الدليل المفيد بل الفائدة وهى حقيقة الحق على ما هى عليه
فمن اعتقد حقيقة الحق فى الله وفى صفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر
على ما هو عليه فهو سعيد وان لم يكن ذلك بدليل محرر كلامى ولم
يكلف الله عباده الا ذلك وذلك معلوم على القطع بجملة أخبار متواترة
من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موارد الاعراب عليه وعرضه
الايمان عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم الى رعاية الابل والمواشى من

غير

غير تكليفهم اياهم التفكر في المعجزة ووجه دلالته والتفكر في
حدوث العالم واثبات الصانع وفي أدلة الوحدانية وسائر الصفات بل
الاكثرون اجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه بعد طول
المدة بل كان الواحد منهم يحلفه ويقول والله آلله ارسلك رسولا فيقول
والله الله أرسلني رسولا وكان يصدقه بيمينه وينصرف ويقول الآخر
اذا قدم عليه ونظر اليه والله ما هذا وجه كذاب وامثال ذلك مما
لا يحصى بل كان يسلم في غزوة واحدة في عصره وعصر أصحابه آلاف
لا يفهم الاكثرون منهم أدلة الكلام ومن كان يفهمه يحتاج الى أن
يترك صناعته ويختلف الى معلم مدة مديدة ولم ينقل قط شئ من ذلك
فعلم علما ضروريا أن الله تعالى لم يكلف الخلق الا الايمان والتصديق
الجازم بما قاله كيف ما حصل التصديق (نعم) لا ينكر ان للعارف
درجة على المقلد ولكن المقلد في الحق مؤمن كما ان العارف مؤمن
فان قلت فبم يميز المقلد بين نفسه وبين اليهودي المقلد قلنا المقلد
لا يعرف التقليد ولا يعرف انه مقلد بل يعتقد في نفسه انه محق عارف
ولا يشك في معتقده ولا يحتاج مع نفسه الى التمييز لقطعه بان خصمه
مبطل وهو محق ولعله أيضا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وان كانت
غير قوية يرى نفسه مخصوصا بها ومميزا بسببها عن خصومه فان كان
اليهودي يعتقد في نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده
كما ان العارف الناظر يزعم انه يميز نفسه عن اليهودي بالدليل
واليهودي المتكلم الناظر أيضا يزعم انه يميز نفسه بالدليل ودعواه ذلك
لا يشكك الناظر العارف وكذلك لا يشكك المقلد القاطع و يكفيه

في الايمان ان لا يشككه في اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه
فهل رأيت عاميا قط قد افحم وخزى من حيث يعسر عليه الفرق بين
تقليده وتقليد اليهودي بل لا يخطر ذلك بباله العوام وان خطر
ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا ما هذا الهذيان وكأن بين
الحق والباطل مساواة حتى يحتاج الى الفرق فارق بينهما انه على
الباطل واني على الحق وانا متيقن لذلك غير شاك فيه فكيف أطلب
الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعا من غير طلب فهذه حالة المقلدين
الموقنين وهذا اشكال لا يقع لليهودي المبطل لقطعه بمذهبه مع نفسه
فكيف يقع للمسلم المقلد الذي وافق اعتقاده ما هو الحق عند الله تعالى
فظهر بهذا على القطع ان اعتقاداتهم جازمة وان الشرع لم يكلفهم
الا ذلك (فان قيل) فان فرضنا عاميا مجادلا لجوجا ليس يقلد وليس
يقنعه أدلة القرآن ولا الاقاويل الجلية المفهومة السابقة الى الافهام
فماذا نصنع به (قلنا) هذا مريض مال طبعه عن صحة الفطرة وسلامة
الخلقة الاصلية فينظر في شمائله فان وجدنا اللجاج والجدل غالبا على
طبعه لم نجادله وطهرنا وجه الارض عنه ان كان يجاحدنا في أصل
من أصول الايمان وان توسمنا فيه بالفراسة مخائل الرشد والقبول ان
جاوزنا به من الكلام الظاهر الى توقف في الادلة عالجناه بما قدرنا
عليه من ذلك وداويناه بالجدال المر والبرهان الحلو وبالجملة نجتهد
ان نجادله بالاحسن كما أمر الله تعالى ورخصتنا في القدر من المداواة
لا تدل على فتح باب الكلام مع الكافة فان الادوية تستعمل في حق
المرضى وهم الاقلون وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب ان
يوقى

يوقن منه الصحيح والفطرة الصحيحة الاصلية معدة لقبول الايمان دون المجادلة وتحرير حقائق الادلة وليس الضرر في استعمال الدواء مع الاصحاء باقل من الضرر في اهمال المداواة مع المرضى فلا بد من وضع كل شيء موضعه كما امر الله تعالى به نبيه حيث قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) والمدعو بالحكمة الى الحق قوم وبالموعظة الحسنة قوم آخرون وبالمجادلة الحسنة قوم آخرون على ما فصلنا اقسامهم في كتاب القسطاس المستقيم فلا نطول باعادته

بحمد بارئ النسم والصلاة والسلام على معدن الكرم وآله
وصحبه وتابعيه وحزبه قد تم طبع هذا المؤلف الجليل والسفر
الذي لا يعادله مثيل الذي أسفر عن مخدرات المعاني وأوضح
سبيل الرشاد للعاني مصححا على يد عبده مصطفى محمد قشيشه
اسبغ الله عليه من ضافي نعمه خير معيشه وذلك
بالمطبعة الاعلاميه ذات الادوات والمقانع
السنيه موافقا الثامن والعشرين من
شهر رجب سنة ثلاث وثلاثمائة
وألف من هجرة من خلقه
الله على اكمل
وصف

DUE DATE